فريدريك نيتشه والرفض المتعالي للعالم

Friedrich Nietzsche and Transcendental Denial of Reality

د. علاء جواد كاظم

"أنا غاضب من العالم بأسره"[١] نيتشه

المقدمة

يُعدُّ الفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشه" أحد أكبر الثورات الفلسفية التي عرفها العالم، آخر انقلابٍ على معطيات العقل وأنساقه المعرفية، آخر خروجٍ عقليٍّ على قيم هذا العالم المتهالك، آخر تمرُّدٍ أبسيتمولوجي على أنظمة الحقيقة. وهذا بالتحديد ما يجعل الكتابة عن نيتشه -دائماً ما- تحمل نوعاً من المخاطرة غير المحمودة عواقبها، وكثيراً ما تتضمن القراءة له وعنه وفيه من المجازفة الشيء الكثير، أقول ذلك وأنا أتذكر ما قاله هو في وصف نفسه: "تحسُّباً لكوني سأضع البشرية عمَّا قريبٍ أمام إلزاماتٍ جسيمةٍ لم تعرف لها مثيلاً في السابق، فإنه يبدو لي من الضروري أن أقول لكم من أنا: أنا لست فزَّاعةً على الإطلاق! أنا الفيلسوف الأخير، أعرف قَدْري، ذات يومٍ سيقترن اسمي بذكرى شيءٍ هائلٍ رهيبٍ؛ بأزمةٍ لم يُعرَف لها مثيلٌ على وجه الأرض، أعمق رجَّة في الوعي، أنا لست إنساناً، بل عبوةُ ديناميت"[٢].

إذا استرجعنا سريعاً القراءات الإشكالية[٣] التي تقدم بها مارتن هيدغر (M.Heidegger) عن نيتشه ابتداءً بمعارضته للفكر النيتشوي على اعتبار أن الأزمنة الحديثة تتوصل إلى هيئتها الخاصة عبر الفكرة النيتشوية، وتصل به إلى تذكُّر نفسها، لكن هذا لا يمنع من اعتباره لـ(نيتشه) "أكثر الأفلاطونيين تفلُّتاً"، وأنه سيبقى "في الموقع الميتافيزيقي الأساسي"[٤]، إذا استرجعنا ذلك سنرى أن الأمر سار باتجاهٍ معاكسٍ تماماً، ظل هيدغر لعشرين عاماً يتذكر كل شيءٍ عن نيتشه، حتى نسي نفسه، نسي "الكينونة" التي حاول إنقاذها من النسيان في بحر نيتشه العقلي الذي لا قرار له، واعترف في الأخير أنه كان مع نيتشه وضده في اللحظة ذاتها، لكنها لم تكن معارضةً مُجديةً إطلاقاً، بل كانت أقرب إلى ورطةٍ عقليةٍ، اكتشف هيدغر -ولو متأخراً جداً- أن نيتشه لم يكن روح عصره، وصوته، وجسده، وسؤال مشكلاته، وقضاياه، وحسب، بل إنه نقل أسئلته الجذرية إلى عصرٍ لم يأتِ بعدُ، وشكَّلت فلسفته لحظةً حاسمةً وجوهريةً في تاريخ الفكر العالمي، عصرٍ كاملٍ من الأحداث الكبرى والهزات العنيفة التي هزت الثقافة الغربية برُمَّتها، إنه آخر المفكرين، جريئاً وعنيفاً حين عَرَّضَ تاريخ الفلسفة لزلزالٍ تدميريٍّ أتى على كل مكونات الحضارة الغربية!

كل الفلاسفة الذين جاؤوا بعد هيدغر واجهوا نفس الصعوبة الكبيرة في التحرر من أشباح نيتشه، والخلاص من تأثيره بشكلٍ نهائيّ، فهذا كارل ياسبرز[٥](K.Jaspers) يصرخ قائلاً: لقد أفقدَنا نيتشه بهدمه للميتافيزيقيا ركناً أساسياً من أركان وجودنا المؤمن في هذا العالم، وكذا الحال بالنسبة لمشيل فوكو(M.Foucault)، ودولوز(G.Deleuze)، وهابرماس(J.Habermas) ودريدا(J.Derrida)، وغيرهم من كبار رجال الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة، لكنهم ظلوا يكتبون عنه وكأنهم مجبولون على الكتابة له! ربما بدافعٍ كان قد حدده هو في منتصف العام (١٨٨٩) حين قال: إنني أغمر بالشرف كلَّ ما أُلحِقَ اسمي به، شيئاً كان أو شخصاً، سواءٌ لديَّ أكان ذلك لصالحه أم ضده.

أيُّ مصيرٍ كان ينتظر هذه القراءات المتعددة لنيتشه ولإرثه الفلسفي؟ أيُّ نتائجَ ترتبت على مصير قُرَّائها الفلسفي؟ وما حجم المخاطر التي عرَّضوا أنفسهم وتاريخهم لها؟

الذي يعرف ذاك المصير سيُدرِكُ عل الفور ماذا أقصد عندما أقول: إن الكتابة عن نيتشه تحمل في داخلها نوعاً من الخطر، حتى لو تضمَّنت ممارسةً عقليةً هائلةَ التعقيدِ؛ كالتي قدمها هيدغر.

لهذا السبب أو ذاك لا أزعم أني أُقدِّم هنا في هذه الأوراق القليلة مبحثاً إضافياً يُحاوِل قراءة نيتشه، أو سيرةَ ذاتٍ غامضةٍ فلسفياً [٦]، ولا حتى يُمكنني اعتباره مدخلاً لتراثه الفلسفي؛ لأنني أعتقد أن أيَّةَ قراءةٍ -مهما كانت- لن تُشكِّل في التحليل الأخير إلا ثقلاً إضافياً، وعبئاً يُثقِلُ كاهل هذا الروح العظيم. إنما تتضمن هذه الورقة محاولةً أوليةً لفهم ما لا يُمكِنُ فهمه بعد نيتشه عن نيتشه نفسه! فالحقيقة لا يملكها أحدٌ بعده، هي ذاتها فقدت معانيها من بعده، وغابت في الطريق البعيد؛ لذا كُنْتُ أكثر ميلاً للأخذ بنصيحة (بيتر سلوتردايك): علينا اليوم أن "ننفض الغبار" عن نيتشه، لا لنُحييه كصنمٍ، أو رمزٍ، أو نظريةٍ، بل بوصفه فيلسوفاً عاشقاً للحياة والحكمة، توزَّط حد الجنون بعشقه، كـ مُخلِّصٍ ومُخلِصٍ، لنُحييه كآليةِ تفكيرٍ متحررةٍ من كل شيءٍ، لكي تعود مقولاته للإشعاع من جديدٍ ببريق بهجتها الاستفزازية الأولى، استفزازيتها البهيجة العابثة التي تظل تُورِّطُ القارئَ المتنبِّه والمفكر الذي لا يغفو في اليقين داخل دوامة السؤال الدائم.

تطرح الورقة تساؤلاتٍ ثلاثة أساسيةٍ، حاولنا من خلالها التحري عن ملابساتها وتفاصيلها، ومن ثَمَّ مناقشتها بإيجازٍ مكثفٍ في مباحثَ ثلاثةٍ بنيت على الشكل الاتي:

المبحث الأول: هل جُنَّ نيتشه فعلاً؟

شكَّل هذا السؤال مدخلاً تحليلياً لفهم ديالكتيك (العقل والجنون) من خلال سيرة الفيلسوف الذاتية والعقلية، واعتماداً على نصوصه ومؤلفاته هو.

المبحث الثاني: أيُّ تصوُّرٍ عقليّ قدمه نيتشه عن العالم؟

في هذا المبحث سنناقش الثيمة الأساسية في نصوص نيتشه، وهي أنه كان يرى نفسه دائماً إنساناً خارج العالم، أو في مواجهة العالم. وهو ما ذهبنا إلى التعبير عنه بـ: "الرفض المتعالي للعالم".

المبحث الثالث: ما هي فكرة "العود الأبدي"؟ هل شكلت الثيمة الأساسية والفكرة المركزية في فلسفة نيتشه؟

وقد تضمن هذا المبحث شرحَ وتفكيكَ هذه الفكرة كما أراد هو، ومن خلال نصوصه التي أُهمِلَت لأسبابٍ عدّة سيتم عرضها لاحقاً.

أولاً: الجنون مدخلٌ إيهاميٌّ

"إن ضميري يرزح تحت عبء حملٍ أثقل من التفاهة الإنسانية، إنه من الممكن أن أكون قَدَراً بالنسبة للأجيال القادمة؛ القدر المحتوم، وإنه من الممكن تبعاً لهذا أن أَخْلُدَ ذات يومٍ إلى الصمت؛ رحمةً بالإنسانية".

هل هو جنونٌ إذن أم خلودٌ للصمت والانزواء بعيداً رحمةً بالإنسانية؟

لكي نتمكن من حل هذا اللغز والإجابة عن هذا السؤال الرهيب، علينا أن نتفحص بكل جديةٍ وعمقٍ الخطوط الأساسية التي يضعها نيتشه كمدخلٍ استثنائيٍّ للجنون لحياته ولفلسفته التي هي بالطبع انعكاسٌ لحياته ذاتها.

في فجر يومٍ شتائيٍّ باردٍ من العام (١٨٨٢) كَتَبَ نيتشه قائلاً باعتراضٍ غريبٍ: "لم يكن ممكناً للأفكار العظيمة أن تُولَدَ ما لم تَحظَ بجوازِ مرورٍ رهيبٍ، إنه "الجنون" هو الذي مهَّد الطريق للفكرة الجديدة في كل مكانٍ تقريباً"[٧]! أيُّ جنونٍ هذا الذي يُلهِم مطلق الفكرة الجديدة احترامَ ذاته والخوفَ منها، ويدفعه ليكون نبيَّ تلك الفكرة وشهيدها؟! وسرعان ما بدأ شكل الجنون يتحول في تصوره إلى واحدةٍ من أعظم الأمنيات وأكثرها نبلاً وحاجةً لنفسه: "آهٍ!. مُنِّي عليَّ بالجنون أيتها القوة العظيمة؛ لكي أتمكن في نهاية المطاف من الإيمان بنفسي".

جاء العام (١٨٨٩) وبينما كان ظلام ذلك اليوم الرهيب قد بدأ يلم أشلاءه، دخل الفيلسوف الألماني الكبير نيتشه ظلام ليلٍ حالكٍ آخر لم يخرج منه حتى مات، لكنه حقق هذا الإيمان العظيم بنفسه، وأصبح هو الفكرة وشهيدها في الوقت ذاته.

"ما الذي حدث لي إذن؟

كيف خلَّصت نفسي من القرف؟

مَنْ الذي أعاد إلى عينيَّ فتوتهما؟

كيف طرت إلى هذه الأعالي؛ حيث لا يجلس أيٌّ من الرُّعاع إلى النبع؟

أهو قرفي الذي صنع لي أجنحةً وقدرةً على استشعار الينابيع؟

لقد طِرت في الحقيقة عالياً حتى تمكنت من أن أجد نبع الفرح من جديد"[٨].

كانت هذه آخر عبارات نيتشه، يصف فيها (الأجنحة) التي مكَّنته من الخروج على العقل، وقدرته على الوصول لـ (الينابيع) التي حققت له بشكلٍ لا واعٍ رفضه للعالم، إنه نوعٌ من استبدالٍ سيكولوجيٍّ لملامح العالم القديم بعالمٍ جديدٍ، هذه الرغبة بالتحليق والطيران إلى مكانٍ بعيدٍ كانت

تجزم بعدم رغبته بالعودة لعوالمه المحدودة، وتمنحه الفرح الجديد، والغريب أنه كتب متحدثاً مع أحد أصدقائه قائلاً: لم يُغادرني ضوء منتصف الليل أبداً، بل كان من حولي دائماً، وإلى جانبه كانت تقبع الوحدة، وثالثهما حَشْرَجَةُ الصمت الموات، أسوأ أصدقائي جميعاً، في ذلك اليوم -وبينما كان نيتشه يراقب سائق عربةٍ- بدأ بضرب حصانه ضرباً مُبرِّحاً في أحد شوارع مدينة (تورين)، انفعل بشدةٍ، أصابه هياجٌ رهيبٌ وشعورٌ مميتٌ بالاختناق، من ثَمَّ اندفع راكضاً باتجاه الحصان؛ لحمايته ملقياً ذراعيه حول رقبته حتى انهار، وسقط على الأرض، وبدأ نوبةَ بكاءٍ رهيبةً على إثرِ هذا المشهد اللعين[٩]، عندها تدخَّل أحد أصدقائه فرانز أوفربيك (F.Overbeck)، وأبعده بالقوة عن الموقف، ومن ثَمَّ أعاده إلى مدينته في بازل، بعدها إلى مصح الأمراض العقلية في (يينا)، فيما بعد عَرَفْتُ من ملاحظات بعضٍ من أصدقائه وشُرَّاح فلسفته أن نوبة بكائه هذه عن ذلك المشهد المؤلم، استمرت عشر سنواتٍ رهيبةٍ، ابتدأت بصرخته الرهيبة بأعلى صوته: "أنا يوليوس قيصر، أنا المسيح، أنا دينوسيوس"!.. وانتهت به إلى الجانب الآخر من العالم، صرخةٌ سبقته إلى هناك بعشر سنواتٍ، وانتهت بموته في ٢٥ أغسطس من العام ١٩٠٠.

لا شك أنَّ الفرق كبيرٌ بين أنْ نقول: إنَّ هذا العام وَثّقَ لهذا الفيلسوف قدرةً هائلةً على الإحساس بالعالم بأعمق حالاته؛ وصلت به حد "الجنون"، أو أدَّت به إلى الخروج عن حدود العقل وأنظمته الميتافيزيقية، إنه نوعٌ من الإحساس العميق بخطأٍ بنيويٍّ يموج في أعماق كل شيءٍ، أدى بفيلسوفنا إلى قلب طاولة العقل على الميتافيزيقيا التي كانت تتلبَّد خلفه، وخرج على أنظمته إلى الأبد، وهذا ليس انهياراً للعقل؛ لأنَّ نيتشه محتفظٌ بكامل عقله إلى النهاية، وهذا ما دفعني إلى استبعاد فكرة جنونه كلياً؛ لأنه من الاستحالة بمكانٍ أنْ تتَّخذَ حالات اتِّقاد الذهن والعقل لدى إنسانٍ كبيرٍ وواضحٍ مثل نيتشه طرقاً ملتويةً تنتهي به بهذه الطريقة المأساوية، وهو الذي يؤمن أن نتاج الفيلسوف هو حياته (أولاً، وقبل أعماله)، طريقة فيلسوفٍ ما في الحياة "تلك هي تحفته الفنية"[١٠]؛ التي يجب أن يقدمها دليلاً على إخلاصه لقضاياه وللحياة، أما إذا كانت الحياة نفسها قد تعرَّضت إلى تشوُّهٍ كبيرٍ على كل المستويات فإن الأمر سيبدو كارثياً على إنسانٍ بنقاء نيتشه؛ "إنَّ نقاوةً مطلقةً من حولي لهي شرطُ حياتي بالنسبة لوجودي، أنا أهلك داخل شروطِ وجودٍ غير نقيَّةٍ، ذلك ما يجعل علاقاتي مع البشر امتحاناً غير يسيرٍ لطاقة تحمُّلي؛ إن إنسانيتي لا تتمثل في التعاطف مع الإنسان في وجوده، بل في أن أتحمل الشعور به إلى جانبي، "إنسانيتي" هي تجاوزٌ متواصلٌ للذات، إلا أنني بحاجةٍ إلى العزلة؛ أعني إلى المعافاة، وإلى العودة إلى الذات والتنفس من هواءٍ خفيفٍ لاعبٍ طَلْقٍ [..]، إنَّ القرف الذي يُثيره فيَّ البشرُ كان دوماً أكبرَ خطرٍ عليَّ"[١١].

إنَّ العزلة والابتعاد عن الناس، الوحدة، وغيرها كانت في التحليل الأخير من بين الاستراتيجيات العقلية التي اتَّخذها نيتشه وعمل بها بوضوحٍ تامٍّ، وكان يُهدِّد العالم بها بين الفينة والأخرى.

بناءً على هذا نرى أن فقدان هذا النوع من الناس لعقولهم يعدُّ أمراً مستحيلاً ومستبعداً، ولا تعوزنا الأدلة التي تؤكِّد ذلك؛ بدءاً من أهمها؛ أقصد تخلف الطب النفسي والعقلي وقتذاك، وقصر

أدواته في ذلك الزمن، وهذا يبدو جلياً في تعاطي الدكتور بروير(J. Breuer)[١٢] مع تداعيات حالة العقل النيتشوي، حتى كاد أن يصاب هو بنفس أعراض حالة نيتشه بعد مجموعةٍ من الحوارات التي أجراها مع الفيلسوف آنذاك! أضف أنَّ حبه للموسيقى وقدرته على العزف على البيانو بقيتا نشيطتين حتى مغادرته للعالم، لقد كان يقضي يومه يعزف على البيانو مقطوعاتٍ كبيرةً ومهمةً، ومن بينها مقطوعاتٌ لهايدن، وكلنا نعرف موسيقى هايدن وحجم الجهد الذهني والانفعالي الذي تتطلبه، وحتى لما عاد إلى بيته في (نومبرغ)، وترك المصحة التي تعالج فيها، بدأ يستخدم بيانو العائلة، وظل يعزف في الغرفة المجاورة لغرفة أمه في البيت الكبير، حتى أن السيدة فرانسيسكا أوهلر(F.Oehler) كانت تعرف من عزف ابنها على البيانو أنه في حالٍ معنويّ ممتازٍ[١٣].

وإذا حاولنا وصف حالة نيتشه العقلية بُعَيد العام (١٨٨٩) فنحن مجبرون -إذا كنا نفتش عن وجودِ اضطرابٍ- أنْ نستشفَّ خلف ما حدث لنيتشه من مرضٍ (ذُهانٍ، أو عُصابٍ)، فسنعود مجدداً في محاولات التفسير هذه إلى التخمينات الأكثر مصداقيةً (تشخيص المركب الهذياني الخفيف والاستعدادات الفصامية)، لكن لا شيء قد تغير فلسفياً بالنسبة لقراءتنا نتاج نيتشه، خاصةً تحت تحليلٍ نفسيّ يكون أكثر عدلاً، ولا سيما استخراج أثارِ عقدةٍ أبويةٍ ذات تفرعاتٍ عدةٍ، وهو يتركنا دائماً عزّلاً مجرَّدين عندما نريد ربط هذه النتائج بالتأويل الفلسفي الخاص بالكتابة النيتشوية[١٤]، وكان دولوز (G.Deleuze) قد أشار إلى هذا الأمر قائلاً: "في تشخيص حالة نيتشه، فإن المرض العام مُرجَّحٌ، لكن من دون أن يكون الأمر مؤكداً بصورةٍ تامةٍ"[١٥]، وفي الحقيقة ليس ذا أهميةٍ كبرى إذا كان الأمر يتعلق بجنونٍ أو بالأحرى بذُهانٍ، لقد رأينا بأي معنىً كان الجنون حاضراً في نتاج نيتشه [...،] إن رسائل نيتشه الأخيرة تشهد على هذه اللحظة القصوى [...،] لكنها لا تزال تنتمي إلى النتاج النيتشوي، بقدر ما شكّلت جزءاً منه، خاصةً وأننا نعلم أنَّ هذا الفيلسوف الغامض لطالما امتلك فنَّ تغييرِ موقعِ المنظورات؛ من الجنون إلى العقل إلى الجنون، وهكذا، كما أنه قد تحدث مراراً عن الجنون بوصفه "حلاً كونياً"، وبوصفه موقفاً أخيراً للإنسان في مواجهة العالم، ففي تاريخ ٦ ديسمبر ١٨٨٩ كتب نيتشه: "إن تلك الطاقة التي سمحت لي بالانعزال والتخلص من كل شروط الحياة المعتادة، وتلك الصرامة مع النفس التي جعلتني أرفض أن أظل مكفولاً ومخدوماً ومُطبَّباً، كل هذا يُنبِئُ عن امتلاكي ليقينٍ غريزيّ مطلقٍ تجاه ما كان ضرورياً لي، لقد أخذت مصيري بيدي، وعالجت نفسي بنفسي؛ الشرط الأساسي في ذلك -وهذا ما يثبته كل عالم فيزيولوجيا- أنْ يكون المرء معافىً في جوهره"[١٦]، وها هو هنا يعلن أنه لا يؤمن "بالشؤم"، ولا "بالذنب"، ويعرف كيف يُصفِّي حسابه مع نفسه كما مع الآخرين، ويعرف كيف ينسى، وهو قويٌّ بما فيه الكفاية كي يسير كل شيءٍ حتماً لصالحه، "هكذا فأنا نقيض المتدهور إذن! إنني إنما كنت أصف نفسي بهذا الكلام، لقد كنت على وشك أنْ أدفع بحياتي ثمناً لهذا الامتياز، فإنَّ هذا بالتأكيد لا يعني أنها كانت صفقةً خاسرةً، بل لعله على المرء أنْ يخضع لشروطٍ مشابهةٍ لهذه التي أعيش فيها كيما تكون له قدمٌ فيما وراء الحياة"[١٧].

والحق أنَّ أغلب كتاباته -ولا سيما الأخيرة منها- تشي بقدراتٍ عقليةٍ هائلةٍ، وأسئلةٍ فلسفيةٍ تشير إلى مصيرٍ من نوعٍ ما وضعه أو رسم ملامحه هو لنفسه؛ فقد كتب نيتشه في بداية ذات العام قائلاً بألمٍ وقلقٍ رهيبين: في الطريق تنتصب علامات استفهامٍ، وفضولٌ يزداد خطورةً: ألا يُمكِنُ قلب كل القيم؟ ألا يُمكِنُ ألا يكون الخير هو الشر؟ و"الميتافيزيقيا" مجرد ابتكارٍ؟ مجرد خدعةٍ شيطانيةٍ؟ ألا يُحتمَل أن يكون كل شيءٍ خطأً وأنه قد تم تضليلنا؟ ألا يمكن أن نكون نحن أنفسنا مُضلِّلين؟ ألسنا مرغمين على أن نكون كذلك؟ [١٨]، لا شيء يدعو إلى الاستغراب؛ فالإنسان الذي يتكلم هنا لم يفعل شيئاً إلى حد الآن سوى التفكير والاستغراق البعيد في التأمل والصمت، وبوصفه فيلسوفاً ومتوحداً بالفطرة، فقد وجد مصلحته في الحياة بعيداً على الهامش، وجدها في الصبر والتأجيل والتأخير؛ مثل مفكرٍ جَسورٍ وجريءٍ، غالباً ما تاه في متاهات العقل؛ مثل طائرٍ نبوئيٍّ ينظر إلى الوراء حين يحكي عن المستقبل، أول عدميٍّ كاملٍ في أوربا، تجاوز عدميته، فقد عاشها، وإنه ليراها وراءه، وأسفل منه، وبعيداً عنه!" [١٩].

ولكي أمضي قُدُماً في تثبيت حدود هذه المفارقة بل المتاهة الرهيبة التي وضعها نيتشه نفسه عن نفسه، أعود لعبارته التي تقدمت مبحثنا هذا: "إنَّه من الممكن تبعاً لهذا أن أَخْلُدَ ذات يومٍ إلى الصمت رحمةً بالإنسانية" أليس هو انتقالٌ ديالكتيكيٌّ من العقل إلى الجنون؟ أليس هو اختيارُ جنونٍ من نوعٍ آخر؟ إنه جنون الفلسفة، هذا هو **الرفض المتعالي للعالم** لما يقول للجمهور الذي بدأ للتو يتهافت عليه، ويعيد اكتشافه كما تنبَّأ بقوله: "أعرف قَدْري، ذات يومٍ سيقترن اسمي بذكرى شيءٍ هائلٍ رهيبٍ؛ بأزمةٍ لم يُعرَفْ لها مثيلٌ على وجه الأرض" [٢٠]، فإنه كان يُحدِّد بتعالٍ اكتماله الذاتي والعقلي، لكنه في ذات الوقت خَلَدَ إلى الصمت والانزواء، وكأنه يقول للناس: لقد بذلت كل ما بوسعي من أجلكم ومن أجل "الحقيقة" التي هي إنسانويةٌ أيضاً وأرضيةٌ بامتيازٍ، مشيراً إلى رأسه يقول: لم أدَّخر شيئاً، أنكرت عقلي لكي أعيدكم للحياة وأعيدها إليكم! "الآن أطالبكم بأن تُضيّعوني وأن تجدوا أنفسكم، وإني لن أعود إليكم إلا عندما تكونون قد أنكرتموني جميعاً" [٢١].

أحسب الآن أنَّ مأساوية النهاية هذه تظهر جليةً في مفارقته التي رسمها بلغةٍ هائلةٍ، وعلى نحوٍ عميقٍ حول آلم واستشهاد ديونسيوس(Dionysus) والمسيح: إننا إذا وضعنا ديونسيوس [٢٢] ضد المصلوب؛ ليس الاختلاف بينهما هو الاختلاف على صعيد استشهادهما الذي له معانٍ مختلفةٌ، ففي حالة ديونسيوس: الحياة وخصوبتها الأبدية وعودتها الدائمة هي سبب العذاب والدمار وإرادة العدم، بينما في حالة المصلوب: يشهد الألم والمصلوب البريء ضد الحياة، وبذلك نحزر هنا أن المشكلة المطروحة هي مشكلة معنى الحياة؛ معنى مسيحيٌّ أو معنى مأساويٌّ، في الحالة الأولى ينبغي أن تكون الطريق المفضية للقداسة؛ وفي الثانية يبدو الوجود قدِّيساً كفايةً بذاته، بحيث يُبرِّر فضلاً عن ذلك آلماً بلا حدودٍ، إن الإنسان المأساوي يثبت حتى الألم الأكثر حدةً؛ لشدة ما هو قويٌّ وغنيٌّ وقادرٌ على تأليه الوجود، بينما ينفي المسيح حتى المصير الأشد سعادةً على الأرض؛ هو فقيرٌ وضعيفٌ ومحرومٌ حد الألم من الحياة بكل أشكالها، إن ديونسيوس هو وعد حياةٍ سوف يُولَد مجدداً إلى الأبد، ويعود

من أعماق الانحلال[٢٣]؛ بناءً على هذه المقابلات الكثيرة التي يُؤسِّس لها نيتشه جَعَلَنا في هذا المقال نميل إلى الاعتقاد بأن الجنون لم يقضِ على نيتشه، والافتراض الأكثر منطقيةً أنَّ الأخير اختار الانزواء بعيداً، اختار العزلة رحمةً بالإنسانية، بانتظار أنْ يعودَ من جديدٍ مع نسره وأفعوانه، وقد عبَّر عن ذلك أبلغ تعبيرٍ في (ما وراء الخير والشر) مُحاججاً نفسه: أحياناً يكون الجنون بمثابة القناع الذي يخفي عرفاناً محتوماً ومؤكَّداً للغاية.

في الوقت ذاته يمكننا أنْ نلحظَ بعمقٍ أنَّ للجنون عند نيتشه وظيفةٌ هائلةٌ، ففي كل مكانٍ تقريباً يكون هو العنصر أو الحدث الذي يُمهِّد الطريق للفكرة الجديدة، ويقطع العلاقة بتقليدٍ راسخٍ وخرافةٍ موقرةٍ، "هل تعرفون لماذا لزمت مساعدة الجنون؟ مساعدة شيءٍ مُريعٍ وهائلٍ على صعيد الصوت والموقف، بقدر ما هي حال النزوات الشيطانية لدى العاصفة والبحر، ومن ثم هناك شيءٌ جديرٌ بالطريقة نفسها، بالمهابة والاحترام[٢٤].

وهو الأمر الذي أشار إليه الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو (M. Foucault) حينما قال: لقد وضع جنون نيتشه حداً أساسياً للتصور الجديد عن العالم، لا يقل أهميةً عن أعظم إنجازاته الفلسفية [..]، كان جنونه هو الثمن الذي ينبغي دفعه لكي ينبلج فجر حداثة الغرب، كاد نيتشه أنْ يصلَ إلى كل شيءٍ"[٢٥].

نحن نقف الآن أمام "جنونٍ" كان يُمارَسُ عليه نوعٌ من الإغراء والغواية -كما وصفه نيتشه في أكثر من مقالٍ- كان يُمارَسُ عليه سحراً من نوعٍ آخر، "إنَّ المرضى والمعتوهين يملكون لأنفسهم نوعاً من الإغراء [...]، إن المجنون والسليم هما النوعان الأكثر اهتماماً بين البشر اللذان تنتمي إليهما العبقرية، انطلاقاً من هذا السحر وفهمه، يمضي فوكو باعترافه الكامل لنيتشه بالسيادة الكاملة على الفلسفة والعقل الأوربي برمته، لتعلموا أنَّ "كل ما أفعله ويفعله فلاسفة العالم الجديد ليس إلا تنويعاتٍ على أطروحات نيتشه"!.. وليس بعيداً عن ذلك الموقفِ تأمُّلُ هيدجر(M.Heidegger) طويلاً في مقولات نيتشه: إرادة القوة، والعود الأبدي، والعدمية، والإنسان السوبرمان، وغيرها معتبراً إياها "الكلمات الأساسية" للفلسفة، ماذا يستطيع العقل الإنساني أنْ يفعل بعد نيتشه الذي كان قد وصل إلى أقصى حدود الفكر، وقَلبَه على كافة وجوهه؟ غامر بكل شيءٍ حتى وصل إلى حافة الهاوية.

ما الفلسفة؟

إنها الوقوف بشجاعةٍ نادرةٍ في مواجهة العالم.

تُشكِّل هذه المقولة -بتصوري على الأقل- المدخل الوحيد للفلسفة عند نيتشه، وقد حاول بكل إمكاناته ونصوصه ومؤلفاته وحواراته أن يجعل منها فعلاً خطراً، غيَّر فكرة الناس عنها، وعلَّمها لتلاميذه في جامعة بال وجامعة ليبزك على أنها "المبدأ الذي يجب أنْ يُشكِّلَ خطراً على الحياة!"[٢٦]، ذاهباً إلى أن "الكفاح العنيد من أجل "الحقيقة" هو المبدأ الفلسفي الوحيد عنده، إن الفلسفة كما كنت دوماً أفهمها وأعيشها هي الحياة طوعاً في الجليد وفوق الجبال الشاهقة؛ البحث عن كل ما هو

غريبٌ وإشكاليٌّ في الوجود، وعن كل ما ظل إلى الآن منبوذاً من قِبَلِ الأخلاق، أتطلَّع إلى كل ممنوعٍ، تحت هذه العلامة سيُكتَبُ النصر لفلسفتي ذات يومٍ؛ ذلك أن الحقيقة وحدها هي التي ظلت إلى حد اليوم خاضعةً جوهرياً للحظر" (٢٧).

وجَّه نيتشه -انطلاقاً من تصوره هذا- نقده اللاذع للفلسفة اليونانية والأوربية الحديثة؛ معتبراً أن ظهور الفلاسفة الإغريق منذ سقراط (Socrates) وحتى أفلاطون (Plato) علامة انحطاطٍ فلسفيٍّ مريعٍ، بسبب هؤلاء أصبحت الغرائز المضادة للهيلينة (Hellenism)(٢٨) هي السائدة! وبسببهم أيضاً فقدت دولة المدينة إيمانها بثقافتها التي تعتبر -بنظره- الثقافة الوحيدة الحقيقية، ألم ينفي أبيقور(Epicurus) أيَّ إمكانيةٍ للمعرفة، رغبة منه بالحفاظ على القيم الأخلاقية كقيمٍ راقيةٍ؟ وفعل أوغسطين الشيء نفسه، من ثم انتقلت العدوى إلى بليز باسكال (B. Pascal) وفكرته عن (العقل الفاسد) دعماً للقيم السائدة، واحتقار ديكارت (R. Descartes) لكل ما يتغير ولا يتسم بالثبات، كذلك الأمر بالنسبة لباروخ اسبينوزا (B. Spinoza)، "انظروا إلى سذاجة اسبينوزا وديكارت"(٢٩)، ووصولاً إلى صرخته الغاضبة بوجه آرثر شوبنهور (A.Schopenhauer) وفلسفته العقلانية؛ كونها ذهبت باتجاه الانفصال عن الإرادة، وعجزه عن التحرر من الأحكام الأخلاقية المسبقة، الذي هو شيءٌ خاصٌّ بالعقل الكبير المتفلت من القيود؛ لذلك عَدَّ نيتشه أنَّ "قمة العقل التي كان(شوبنهور) يتخيلها هي التوصل إلى معرفة أنَّ كل شيءٍ كان مجرداً من المعنى، لقد أنكر أنْ تكونَ هناك أصنافٌ لها عقلٌ أرقى، معتبراً أن تجربته هي أقصى ما يمكن أن يبلغه البشر، أما كانط(I. Kant) فقد حصل على حصته من نقد نيتشه الرهيب: إن مفهومَي كانط عن العالم الحق والأخلاق باعتباره ماهية العالم [...] هذان الخطآن في تصوري هما الأكثر شراً في تاريخ الفلسفة والعالم، وقد عدهما شراً؛ لسببين أساسيين: أولاً لأن"الأخلاق" عند نيتشه هي مجموعة الشروط الضرورية للمحافظة على جنسٍ بشريٍّ ضعيفٍ ومحبطٍ كلياً أو جزئياً(٣٠)، وثانياً لأن فضيلتي الفيلسوف الرئيستين من وجهة نظره ليستا الحق والأخلاق، بل هما: نقد كل الاخلاق والقيم السائدة، وقلبهما رأساً على عقبٍ (Tranvaluation)، من ثم المبدأ الذي تتبع له أو تستند عليه، وخلق قيمٍ جديدةٍ؛ قيمٍ للحياة تُطالب بمبدأٍ آخر!

هذا هو معنى الفلسفة لديه؛ ولعدم توفر هذه الشجاعة الفلسفية، ساد زمن انحطاط الفلسفة، ففي أوقات الانحطاط هذه يفسح الفيلسوف الحقيقي المشرع المجال أمام فيلسوفٍ خاضعٍ: "بدلاً من ناقد القيم السائدة، وبدلاً من خالق القيم يظهر حافظ القيم المسلم بها، يكف الفيلسوف عن أن يكون فيزيولوجياً أو طبيباً ليصبح ميتافيزيقياً، ويدَّعي أنه خاضعٌ لمتطلبات الحقيقة والعقل، وسيكشف لنا نيتشه بنفسه في النهاية أنَّ ما وراء متطلبات العقل هذه قوىً غير عاقلةٍ، وما وراء الحقيقة تتلبَّد أكاذيبُ كبرى، عند هذا بالضبط يكون الفيلسوف الحق هو الذي يُقوِّم الحياة انطلاقاً من قدرته على حمل أثقالٍ هائلةٍ على كاهله، إنها القيم الجديدة التي يُبشِّر بها، الـ (لا) الكبرى التي ستنفي وتسلب العالم التقليدي روحه؛ لأننا ما لم نُحمِّل أنفسنا عبء القيم العليا وثقلها العظيم، ونفي العالم، عندها سنضطر للقَبول بالواقع كما هو. ويبدو أنه اختار مع نفسه -على

الأقل- الاختيار الثاني في هذه المقابلة التي وضع نفسه ووضعنا جميعاً بها: "لقد حصل التناقض بين العالم الذي نُبجِّله والعالم الذي نعيشه، الذي نُشكِّله نحن، ولا يبقى أمامنا سوى أمرين اثنين؛ إما القضاء على تبجيلنا، وإما القضاء على أنفسنا بأنفسنا"[٣١]، أفترض أنه هنا كان قد وقع على الاختيار الأكثر ألماً وجنوناً؛ لأنه ناقش مطالب الوجود بعمقٍ شديدٍ، معتبراً أنَّ السمة الأساسية لعصورنا الحديثة تكشف لنا حقيقةً جوهريةً، تلك هي فقد الإنسان الحديث -في نظر نفسه- قدراً كبيراً من كرامته وعقله، لطالما كان هو مركز الوجود وبطله التراجيدي!

هذه القيم الاجتماعية قد تم رفعها فوق الناس كـ "حقائق" كما لو كانت هي العالم الحقيقي، هي الأمل في عالمٍ آتٍ، الآن وقد بدا لنا بوضوحٍ أصل هذه القيم الحقيرة فإن العالم يبدو بسبب ذلك "حقيراً"، يبدو وكأنه فقد كل معانيه، لكنها -كما يرى نيتشه- ليست سوى مرحلةً أولى انتقاليةً، حتى يعود هو وينقذ أوروبا من الضياع والعدمية التي بُلِيَت بها؛ لذا أصرَّ على الدوام في فعاليته الجديرة بالاحترام إعادة تعريفه للفيلسوف والموضوعية التي يجب أنْ يتلبَّسَها: "لا مبالاته بنفسه، ولا مبالاته للعواقب المحمودة أو الوخيمة، عدم التردد في استخدام الوسائل الخطيرة، اعتبار فساد الطبع وتعقده امتيازاً واستغلالهما، لا مبالاتي الكبيرة بنفسي هي الأساس [..]، يبدو أن الإنسان يُغلِق أبواب المعرفة دونه بمجرد ما يهتم بحالته الخاصة، بل بإخلاص روحه عليه ألا يولي أهميةً كبيرةً لأخلاقه، وألا يقبل بأنْ يُحرَم من حقه في فعل ما هو عكس ذلك".

ثانياً: نيتشه والتصور العقلي للعالم

"يبدو أنني هنا أيضاً لا أتفق مع العالم بكليته بخصوص مفهوم الحقيقة، العقل، إنه يطفو فوق المياه بالنسبة لي"[٣٢].

يَعتبر نيتشه أنَّ "العالم" هو إرادة القوة، ولا شيء آخر، ومن ثم فإنَّ هذا العالم ليس وهماً، لكنه أيضاً ليس حقيقياً كما نتصور، إنه فعاليةٌ عمليةٌ، صيرورةٌ لا نهائيةٌ، إنه إرادة قوةٍ، وهذه الإرادة هي طابعه المعقول والوحيد.

حاول نيتشه أنْ يُثبِت لنا أنَّ تصوراتنا عن العالم هي من صنع عقلنا ووسائله في المعرفة، وليست هي صورته الحقيقية[٣٣]، وأنَّ تفكيرنا ما هو إلَّا وسيلةٌ نتمكن من خلالها من زيادة قدرتنا على السلوك في العالم، ومضاعفة قوتنا وسيطرتنا على العالم، أو بتعبيرٍ أكثر دقةً (الإمساك) به، والسعي إلى بلوغ الحقيقة ليس له معنىً إلا بوجود تلك الإرادة الخفية الغامضة للإمساك بالعالم، كذا الأمر مع(المعرفة)؛ فهي ليست ذاتيةَ الهدفِ كما كنا نتصور؛ بمعنى أننا لا نريد أن نعرف من أجل أن نعرف حقيقة ما (المعرفة لأجل نفسها)، أو نفهم قضيةً ما لمجرد رغبتنا بالفهم، بل من أجل أن نُسيطر.

ثَمَّة رغبةٌ بالسيطرة في كل أفعالنا، ثَمَّة إرادةُ قوةٍ تختفي وراء كل شيءٍ، فعندما نُفكِّر، ونُخطِّط، ونفرض نظاماً وتصوراً ما على كثرة الانطباعات والإحساسات التي تَرِد إلى عقولنا من العالم الخارجي، فنحن نفعل كل ذلك مدفوعين برغبةٍ ما للسيطرة (العقلية) على العالم الذي نعيش فيه. هذا يعني أن عملية التفكير في حَدِّ ذاتها تحتاج إلى عملية تفكيرٍ أخرى تتعالى عليها، وتحكمها، وتحميها من الذاتية.

إن الواقع هو صيرورةٌ، ونحن لا نتوقف عن تحويله إلى صيرورةٍ ذاتيةٍ؛ أي (وجود) بأن نفرض نماذجَ ثابتةً على تدفق الصيرورة، وهذا النشاط هو تعبيرٌ (خفيٌّ) عن إرادة القوة.

اعتَقدَ نيتشه -وهو محقٌّ في تصوري- أنَّ كل التفسيرات العقلية للعالم التي تُعطى للحياة كانت تتسبب دائماً بألمٍ شديدٍ أشد عمقاً، وأشد قتلاً للناس، حتى جعلتهم يرون في كل عذابٍ يصيبهم وكأنه عقابٌ على خطيئةٍ ما لم تُرْتَكَبْ في الواقع. هذا الحقد على ما هو "بشريٌّ"، وأكثر أيضاً على كل ما هو

"حيوانيٌّ"، وأكثر على ما هو "مادةُ" هذا الاستهوال للأحاديث وحتى للعقل؛ هذا الخوف من السعادة ومن الجمال، هذه الرغبة في الهرب من كل ما هو ظاهرٌ، وتبدُّلٌ، وصيرورةٌ، وموتٌ، وجهدٌ، وحتى رغبةٌ"[٣٤]، كان عداءً للحياة وليس تصوراتٍ عقليةً للحياة، وهو يحاول جاهداً بيان تصوره عن العالم، على اعتبار أنه يُبشِّر بمنطلقه، ومنطقه الجديد: هل تعلمون ما يعنيه "العالم" بالنسبة لي؟ هل يجب أنْ أُريَكُم إياه في المرآة؟ هذا العالم بحرٌ من القوة لا أول له ولا آخر، كمٌّ هائلٌ من القوة الفولاذية التي لا يزيد حجمها ولا ينقص، لا تقوم بالاستهلاك وإنما بالاستخدام فقط، لا تتغير في مجملها [..] ولا تجري فيها أي زيادةٍ، يُحيط به العدم كما لو كان هو حدوده[٣٥]، ليس هذا العالم شيئاً غامضاً يتم تبذيره، ليس شيئاً متناهيَ الامتدادِ، وبما أنه قوةٌ محددةٌ فإنه قد وُضِعَ في فضاءٍ محدَّدٍ وليس في فضاءٍ فارغٍ، القوة تملؤه، إنه لعبةُ القوة وموجاتها، هو في الوقت ذاته واحدٌ ومتعددٌ، ويُحقِّق التراكم هنا والتناقض هناك، بحرٌ من القوة الهائجة هو العاصفة المحركة لها، متحولاً في حركةٍ أبديةٍ من المد والجزر، محققاً للعودة بعد سنواتٍ طويلةٍ جداً، "هذا العالم مثلما أتصوره أنا، هذا العالم الديونسي الذي يخلق نفسه باستمرارٍ، ويُدمِّر نفسه باستمرارٍ، هذا العالم العجيب، عالم "ما وراء الخير والشر" الذي أتصوره دون هدفٍ، اللهم ما كان من هدفٍ يكمن في سعادة الدائرة دون إرادةٍ، اللهم ما كان من دائرةٍ تملك إرادة المضي في طريقها القديم دائماً حول نفسها وحول نفسها فقط، هذا العالم مثلما أتصور أنا، مَنْ يملك مِنَ القوة ما يجعله يُقدِّم روحه لهذا المرآة، ويُقدِّم مرآته لمرآة دينونيزوس، ويُقدِّم حَلَّه للُغز ديونيزوس، [...]هل أدركتم الآن ما يعنيه العالم بالنسبة لي وما أريده حين أريد هذا العالم؟"[٣٦].

إن المهمة الكبرى التي تُلقي بظلالها على الرؤية العقلية للعالم عند نيتشه، والتي تسببت بمواقفَ متباينةٍ لدى الباحثين في فلسفته، ليست في الكيفية التي أهمل بها نيتشه العقل ووقف بوجه الحقيقة، "أيُّ قدرٍ مِنَ الحقيقة يستطيع عقلٌ أنْ يتحمل؟ وإلى أيّ حدٍّ مِنَ الحقيقة يجرؤ عقلٌ على المضي؟! أيُّ حقيقةٍ تلك التي ظلت إلى حدِّ اليوم خاضعةً جوهرياً للحظر؟ [٣٧].

هل هذا يعني أن نيتشه أهمل (العقل) بإرادته أم بإرادةٍ أخرى خارجيةٍ مارست على فلسفته تأثيراً وتوجيهاً غير مفهومٍ؟ بل: "لِمَ" وقف نيتشه ضد العقل أصلاً؟ لو فكرنا بالإجابة عن ذلك ستُحَلُّ المشكلة وسيبدو الجواب واضحاً جداً، لقد ارتبطت الحملة على العقل في ذلك الزمن بمظاهر التحرر الفكري وتكريس الفكر من أجل تقدم الإنسانية؛ ذلك أن العقل كان في منظور فلاسفة ذلك العصر مبدأً مضاداً للحياة، وساد بينهم الظن أن للعقل مبادئه الثابتة التي ينبغي أن يخضع لها الواقع، وها

هنا بالضبط يكمن "عيب" الفلاسفة المشترك في كونهم ينطلقون من الإنسان الحالي، ويتخيلون أنهم قد بلغوا الهدف من خلال تحليلهم له، والحق أنهم "مزقوه" إلى أشلاءٍ مَيْتَةٍ متناثرةٍ متناقضةٍ مع نفسها، وتشكيلها الإنسان بلحمه ودمه مرتبطٌ بالأرض، وعقله الأزلي عالقٌ بالسماء، بشكلٍ غامضٍ يتخيلون الإنسان دون أن يقصدوا ذلك، وكأنه حقيقةٌ خالدةٌ، يتخيلونه واقعاً ثابتاً وسط دوامة الكل، ومقياساً ثابتاً للأشياء، وإن خطيئة الفلاسفة هي غياب الحس التاريخي[٣٨] في عقولهم، بحيث لو ظهر بينهما تعارضٌ كانت مبادئ العقل هي الصحيحة دائماً، وفُرِضَ علينا تفسير الواقع تبعاً لما تقضي به هذه المبادئ؛ لأن الفلاسفة كانوا ينظرون للعقل بوصفه مَلَكَةً رفيعةً ذات محتوىً فطريٍّ، مصدره إلهيٌّ مباشرٌ؛ إذن هو قوةٌ تعلو على الحياة؛ ولذا اعتبر الفلاسفة آنذاك أن العقل هو تلك الـ "قوة المضادة للطبيعة"، القوة التي تُعيق الإنسان عن ممارسة ملكاته وإطلاق إمكاناته في هذا العالم، وتربطه بعالمٍ آخر أزليٍّ، ثابتٍ، وهذا ما لا تطيقه طبيعة البشر ولا يعرفه الواقع الإنساني، ومن هنا كانت حملتهم على العقل ودعوتهم للّامعقول[٣٩]، بَيْدَ أنَّ نيتشه اختلف عنهم، حتى في هذا الأمر، اختلف عن معاصريه من الفلاسفة في طبيعة نقده للعقل وطرائقه الفلسفية؛ إذ كان هدفه الأساس من نقده للعقل نقده للميتافيزيقيا وتحطيمها، وتحطيم كل ما يرتبط بها من أفكارٍ وتصوراتٍ؛ ذلك أن العالم الميتافيزيقي -في الفلسفة التقليدية- قد بُني على الإيمان بوجود حقائقَ عقليةٍ خالصةٍ تتخذ دعائمَ للوصول إلى ذلك العالم، هذه الميتافيزيقيا لم تكتفِ بخلق ذلك العالم والبرهنة على وجوده، بل إنها تفرض علينا التعاطي معه على أنه هو العالم الحقيقي، أما عالمنا الحقيقي فعالم ظواهرٍ فحسب؛ إذ أن مجرد التسليم بوجود عالمها الخاص أمرٌ ليس بالهيّن، وعواقبه على السلوك الإنساني وخيمةٌ؛ لذا فكّر نيتشه بأنْ يجتث الفكرة برمتها من جذورها العميقة، لقد كان هنالك على الدوام في رأيه خطأً عقلياً كبيراً عَدَّه أساساً بُنيَت عليه فيما بعد كل التعارضات الوهمية للتفكير الفلسفي، وهذا الأمر بات عبئاً تاريخياً ثقيلاً من شأنه توثيق أكبر الأخطاء الفلسفية، فقد كتب يقول: "تكاد القضايا الفلسفية اليوم تتخذ نفس الصيغة "التساؤلية" التي اتخذتها منذ ألفي سنةٍ، كيف يمكن أنْ يتولَّد شيءٌ ما عن نقيضه؟ كيف يمكن أنْ يتولَّد العقل من اللّامعقول؟ والمحسوس من الجامد؟ المنطق من اللامنطق؟ الغيرية من الأنانية؟ الحقيقة من الخطأ [...]؟ لقد التفَّتِ الفلسفة الميتافيزيقية حتى الآن على هذه الصعوبات بإنكارها قدرة الواحد على إنتاج الآخر، وبإقرارها بأن للأشياء التي تُعَد ساميةً أصلاً خارقاً ينبع مباشرةً من صميم وجوهر الواقع المطلق، هنالك في أساس هذا التعارض خطأٌ ارتكبه العقل، ليس هنالك أي سلوكٍ أنانيٍّ، بل هما محض تصعيداتٍ يكاد العنصر الأساس يبدو فيهما، وكأنه قد تبخر، ولا نكتشفه إلا عند الملاحظة الدقيقة جدا"[٤٠]،

وانطلاقاً من هذا أكد نيتشه أن فلسفته الجديدة ذات صيغةٍ تاريخيةٍ، ولا يمكن تصورها بمعزلٍ عن العلوم الطبيعية، وقد نجح فعلاً باستعمالهما وتوظيفها باكتشاف أن المقولات المتوالدة أعلاه ليست بمتناقضاتٍ، ما عدا في المبالغة التي اعتادها التصور الشعبي أو الميتافيزيقي التي تنجم عن تصوراتٍ عقليةٍ غير سليمةٍ، معتبراً أنَّ الأخطاء الكبرى التي وقع فيها التصور الفلسفي الكلاسيكي عن العالم تمثلت في:

١- تقدير الوعي وإعطائه قيمةً مبالغاً فيها لما نجعل منه نسقاً عقلياً.
٢- اعتماد "العقل" بوصفه سبباً إجمالياً يُفسِّر لنا النسق العام.
٣- اعتماد مقولة (الوعي) بوصفه أسمى ما يمكننا بلوغه.
٤- الذهاب إلى أنَّ المعرفة المطلقة تساوي قوة الوعي، وهذا خطيرٌ جداً في رأي نيتشه؛ لأننا - بحسب تصوره- لا نملك الأعضاء الدقيقة لإدراك تلك العوالم العميقة والدقيقة التي تُسمَّى (الوعي) أو حتى لإدراك ذلك العالم خارج الوعي، بحيث نتخيل سبباً ما لكل هذا التعقيد، والأصل أن بواعث الحركة والتغيُّر تظل خفيةً عنا؛ لأن تتابع الأفكار والأحاسيس ناتجٌ عن كونها مرئيةً داخل الوعي؛ لذا اعتبر نيتشه أن النتائج التي وصل إليها فلاسفة العقل الميتافيزيقي تمثَّلت في أن التقدم يكمن في التقدم نحو الوعي، وكل تقهقرٍ يكمن في اللاوعي[٤١]، بينما ذهب هو إلى اعتبار أن الوعي نفسه "تجمعاً حسياً وسلطةً عليا"، ليس أكثر من أداةٍ للتوصيل تطورت بفعل أنظمة العلاقات التي تنتجها؛ تأثير العالم الخارجي في تشكيل وعينا، وحتى على ردود الفعل التي يستدعيها ذلك من طرفنا، وكذلك على التأثير الذي نمارسه على الخارج، إنه ليس قناةً إنما هو عضوٌ ناقلٌ، وهذا يشير إلى أن كل أعضاء المعرفة والحواس فينا متطورةٌ فقط بالنسبة لظروف البقاء والنمو، أما الثقة في العقل ومقولاته في الجدل والمنطق فلا تزيد عن كونها تُبيِّن منفعة العقل للحياة وليس حقيقته، وهي منفعةٌ سبق وأنْ بيَّنتها التجربة، ويختصر نيتشه هذا الأمر بمقولته الشهيرة: "من الضروري أن يكون هناك شيءٌ نعتبره حقيقياً، ولكن ليس من الضروري أبداً أنْ يكون حقيقياً"؛ هذا يعني -كما ألمح كثيراً- ألَّا وجود للعقل والوعي والروح، والحقيقة ما هي إلا أوهامٌ لا يمكن استعمالها، تعمل المعرفة كأداةٍ للقوة، ومن ثم فمن البديهي أن تزداد بازدياد القوة؛ هذا يعني أن المعرفة عنده لا تختلف عن فِكرتَي (الخير) و(الجمال) اللتان تُشكلان في تصوره ما تُمكِّنان نوعاً معيناً من البقاء وازدياده قوةً، فإنَّ تصوره للواقع يجب أنْ يشمل الكثير من الأشياء القابلة للإحصاء

والثابتة، ولكي يكون جديراً بأن يضع على أساس هذا التصور ترسيمة سلوكه، تقف منفعة البقاء -وليست الحاجة المجردة والنظرية إلى عدم الوقوع ضحية التضليل- وراء تطور أعضاء المعرفة كباعثةٍ له، وهذه الأعضاء تتطور بشكلٍ يجعل ملاحظتنا لها تكفي لبقائنا على قيد الحياة، يتوقف قدر الحاجة للمعرفة لدى نوعٍ ما على قدر نمو إرادة القوة لديه.

ليس لدينا مقولاتٌ تُمكِّننا من الفصل بين (عالمٍ في ذاته) وعالمٍ يُعتبر تمثُّلاً، كل مقولات العقل لدينا أصلها حسيٌّ؛ مستنبطةٌ من العالم التجريبي، إن (الذات) في التحليل النيتشوي الأخير ليست سوى كلمةً للتعبير عن نظام (دوائر القوة) وعن مجموع هذه الدوائر، أما الكائن الحي (بشكلٍ عامٍّ) فهو كل ما يمكننا البرهنة على كونه يفعل ما في وسعه لا من أجل أنْ يحافظ على نفسه، بل لكي يصير أكثر مما هو، وهكذا الأمر مع (الحقيقة) التي هي كل ما يبحث عنه العقل ويحاول الوصول إليه، فهي ممتدةٌ وَفْقَ الآتي:

١- من زاوية (الإحساس) هي ما يحرك الإحساس بقوةٍ أكبر "أنا".
٢- من زاوية (العقل) هي ما يمنح الفكر أكبر إحساسٍ بالقوة (الإرادة).
٣- من زاوية (الحواس: اللمس والبصر والسمع) هي ما يدفعنا إلى المقاومة الشرسة.

إذن فتجليات الموضوع عند نيتشه هي التي تثير الإيمان بالحقيقة؛ أي بواقعيته، فالإحساس بالقوة، وبالصراع، وبالمقاومة، يُقنعنا بوجود شيءٍ نقاومه؛ هذا يعني أن فكرة الحقيقة في نظر نيتشه شيءٌ غير واقعيّ وغير منطقيّ، بل لا وجود لحقيقةٍ مطلقةٍ -كما يرى هو- إنه محض اختراعٍ من اختراعات الفلاسفة الذين لا يقتنعون بعالم الصيرورة، ويبحثون عن عالمِ وجودٍ ثابتٍ لا يتغير، "إنَّ الحقيقة هي نوعٌ من الخطأ، بدونه لا يستطيع نوعٌ معينٌ من الموجود أنْ يحيا، إنَّ القيمة بالنسبة للحياة حاسمةٌ في نهاية المطاف"[٤٢]؛ لأن مَلَكَةَ الصح والخطأ ترتبط بالعلاقات بين الكائنات، وليس بـ "الشي في ذاته" كما رأى (كانط) ليس هناك (كائناتٌ في ذاتها)، فالعلاقات هي التي تُشكل الكائنات؛ مثل ذلك لا توجد معرفة في ذاتها، من ثم إنَّ (الحقائق) كلها اختلاقاتٌ، والاختلاقات هذه هي في التحليل الأخير عبارةٌ عن تأويلاتٍ، والأخيرة ليست إلا منظوراتٍ، وإنَّ مقولات العقل هي الأخرى اختلاقاتٌ أو منظوراتٌ منطقيةٌ، كما أنها لا تُعد حقائقَ ضروريةً، وليست صوراً قبليةً، بل كل هذه وتلك ليست سوى وسائل تُمكِّن الإنسان من الهيمنة على تدفق الصيرورة.

لقد وقع الفلاسفة -في نظر نيتشه- في خطأٍ جسيمٍ؛ لأنهم بدلاً من أن يروا في المنطق وفي مقولات العقل وسائلَ لملائمة العالم والغايات النفعية، ظنوا على العكس من ذلك أنه معيار الحقيقة؛ أي معيار الواقع، أما معيار الحقيقة فقد كان في نظره هو "المنفعة البيولوجية" التي في نظام التغير المبدئي: وفي انتظار ألَّا يَعرِفَ نوعٌ حيوانيٌّ شيئاً أهم من البقاء، سيكون لنا الحق بالفعل في الحديث هنا عن الحقيقة.

كانت السذاجة تقتضي فقط اعتبار خاصية المركزية البشرية هي مقياس الأشياء، وهي معيار الواقعي واللاواقعي؛ باختصارٍ تحويل شيءٍ مشروطٍ إلى شيءٍ مطلقٍ، وهذا هو العالم ينقسم تبعاً لذلك إلى قسمين: (العالم - الحقيقة) و(العالم - المظاهر)، ولأن العالم الذي تخيل الإنسان في عقله أنه سيعيش فيه ويستقر فيه، هو العالم الذي تم بشكلٍ متعمدٍ تحقيره له! فقد الإنسان بناءً على ذلك كل قدرته على التفكير وعقلنة العالم بشكلٍ صحيحٍ؛ والسبب الأول هو (الفلاسفة) الذين اعتمدوا الأشكال لتصبح وسائل تجعل العالم طيع القيادة وممكناً تحديده من طرفه فقط.

لقد أُسِيءَ تأويل العالم -بحسب نيتشه- ومن ثم فقد الإنسان قدرته على فهم العالم، وقبل ذلك فقد قدرته على فهم دوره الأساس من وجوده في هذه الحياة، وهكذا تتبين النتيجة النهائية: إنَّ كل دواعينا الواعية هي ظواهرُ سطحيةٌ، لكن خلفها بالضبط يدور صراعُ غرائزنا وأحوالنا، إنه صراعٌ من أجل القوة.

ثالثاً: العود الأبدي، أو الرفض المتعالي للعالم بكل تجلياته:

تأتي فلسفتي معها بالفكرة العظيمة الظافرة التي ستؤدي في نهاية المطاف إلى حجب كل طريقةٍ سواها، إنها فكرة الانتقاء العظيمة: الأعراق التي لا تؤيد هذه الفكرة محكومٌ عليها بالزوال، والتي تعتبرها هي النعمة الكبرى يتم اختيارها لتكون مهيمنةً[٤٣].

أكد نيتشه على أن مقولة "العود الأبدي" هي الفكرة "الأثقل وزناً من أي شيءٍ ومن أي فكرةٍ أخرى"[٤٤]، إنها "الفكرة المنتصرة"[٤٥]،"شيطان الوحدة"[٤٦]، ذاك السؤال الثقيل بثقلٍ قاطعٍ ورهيبٍ. إنها الفكرة التي تفوق احتمالنا جميعاً، وكأنها "الأفعى بالحلق"[٤٧]، تلك التي هبطت عليه في لحظةٍ مباغتةٍ، لحظةٍ هائلةٍ، نزلت على رأسه كصاعقةٍ قويةٍ أو كحالةٍ من حالات الوحي العنيفة جداً.

يعود تَشكُّل الفكرة إلى يومٍ من أيام شهر أغسطس سنة ١٨٨١: في هذا اليوم ذهب نيتشه إلى بحيرة سلفايلانا في وادي الإنجادين بسويسرا، وسار في غاباتها حتى وصل إلى صخرةٍ هرميةِ القمةِ، غير بعيدةٍ عن سورالاي، وهنا هبطت عليه الفكرة الهائلة، ومنذ ذلك الحين طغت الفكرة على فلسفته برمتها، واستولت على المكانة المركزية فيها، ويمكننا إيجاز فكرة العود الأبدي[٤٨]: إن الوجود ليس صيرورةً مستمرةً لا نهائيةً، وإنما تأتي فترةٌ ما يُسميها نيتشه (السنة الكبرى) للصيرورة، عندها تنتهي دورة الصيرورة لتبدأ دورةٌ جديدةٌ، وهذه الدورة الجديدة تأتي سنتها الكبرى فتنتهي من جديدٍ، وكل دورةٍ من هذه الدورات تكرارٌ تامٌّ للدورة السابقة عليها، ولا اختلاف مطلقاً بين الواحدة والأخرى، فكأن الوجود كله صورةٌ واحدةٌ تتكرر بلا انقطاعٍ في الزمان اللانهائي، "كل شيءٍ يغدو ، وكل شيءٍ يعود، وإلى الأبد تدور عجلة الوجود، كل شيءٍ يبيد، وكل شيءٍ يحيا من جديدٍ، وإلى الأبد تسير سنة الوجود"، وهذا التكرار يتناول كل التفاصيل، ويشمل كل الجزئيات، "فكل الأحوال التي يمكن لهذا العالم أنْ يصلَ إليها قد وصل إليها من قبل، لا مرةً واحدةً بل مراتٍ لا نهائيةٍ.

ماذا تفعل لو انزلق على رأسك ذات يومٍ شيطانٌ وهمس في أذنك: "إن هذا الوجود كما عشته، وكما تعيشه الآن، عليك أن تكرره، وأن تكرره باستمرار دون أي شيءٍ جديدٍ، بل على العكس! إن أقل ألمٍ، وأقل لذةٍ، وأقل فكرةٍ، وأقل آهةٍ، كل ما في حياتك سيعود، أيضاً كل ما فيها مما لا توصف عظمته ومما لا يوصف صغره، الكل سيعود، وسيعود بالترتيب عينه تبعاً لنفس التعاقب الذي لا يرحم، هذا العنكبوت سيعود أيضاً، وضوء القمر هذا بين الأشجار، وهذه اللحظة وأنا أيضاً. ساعة الحياة الرملية ستعود من دون انقطاعٍ، وأنت أيضاً ستعود معها غبارٌ أقل من قليل الغبار". ألن ترمي بنفسك على الأرض، صارّاً بأسنانك ولاعناً هذا الشيطان؟ [٤٩].

هل تريد أن تتكرر هذه الحياة من جديدٍ مرةً أخرى .. دائماً .. أبداً؟

هذا السؤال -ذو الثقل الذي لا يُطيق حمله أحدٌ- قاطعٌ ورهيبٌ! كم سيجدر بك أنْ تحب نفسك وتحب الحياة، حتى لا تتمنى شيئاً آخر إلا هذا التأكيد الأسمى والأبدي؟

لقد جعل نيتشه زاردشت يتحدث عنه وبلغةٍ أدبيةٍ شعريةٍ هائلةٍ، وقد قرر ذلك بشكلٍ لا يقبل الشك والتأويل لمَّا عُدَّ أنَّ زاردشت هو (معلم العود الأبدي): "سأعود مع الشمس، مع هذه الأرض، مع هذا النسر، ومع هذه الحية، ليس لحياةٍ جديدةٍ أو حياةٍ أفضل أو حياةٍ مشابهةٍ، عوداً أبدياً، أظل أعود إلى هذه الحياة نفسها وذاتها بما فيها من عظيمٍ وحقيرٍ؛ كي أُعلِّمَ العود الأبدي للأشياء كلها من جديدٍ؛ كي أنطق بكلمةٍ ظهيرة الأرض والإنسان الكبرى، وأنْ أُبشِّر الإنسان بالإنسان الأعلى، لقد قلت كلمتي، والآن أتحطم بكلمتي: ذلك هو قدري الأبدي، مبشراً أمضي إلى حتفي، لقد حانت الساعة الآن[٥٠].

لقد أثار أغلب الباحثين -بعنادٍ غير مبررٍ أو بفهمٍ مغلوطٍ- أنَّ فكرة (العود الأبدي) لها أكثر من جذرٍ في الكثير من الفلسفات والديانات القديمة، مشيرين إليها في النظرية الرواقية، وإذ تظهر جليةً على اعتبار أن العالم فانٍ، وأنه سيأتي عليه وقتٌ يحترق فيه ويعود إلى النار الأزلية، لكن زيوس يعود ليخلق العالم الجديد، وهكذا تتوالى الدورات في عودٍ أبديٍّ بحسب الرواقيين[٥١]، كذلك في الديانات الآسيوية والفارسية والعراقية، متمثلةً في غيبة الإله دموزي وعودته، في البوذية أيضاً تركزت في تناسخ الأرواح، فقد رأى بوذا أنَّ الموت والحياة يتعاقبان بشكلٍ لانهائيٍّ، كل موتٍ تسبقه حياةٌ، وهكذا.. إلا أن المصدر الأقرب لنيتشه وجده في اليونانية القديمة التي تعمَّق كثيراً في دراستها عند هيرقليطس والرواقيين، وقد استقى منهم (شوبنهور هذه الفكرة وناقشها كثيراً)، وقد بدت واضحةً وجليةً عند هيرقليطس في فكرته عن التكرار الدوري: دورات العالم الطبيعي النار التي تشتعل بحسابٍ وتخبو بحسابٍ، وفي ترجمةٍ أخرى أن هذا العالم هو أزليٌّ لم يخلقه إلهٌ أو بشرٌ، ولكنه كان وكائن وسيكون ناراً أبديةً، تُشعِل نفسها بمقاييسَ محددةٍ، وتخبو وَفْقَ نظامٍ محددٍ، باحثون آخرون ذهبوا إلى اعتبار الكلدانيين أول من وصل إلى هذه الفكرة؛ لتعمقهم في التنجيم والفلك، وقد اعتقدوا أنَّ هنالك وقتاً تشتعل فيه الكواكب السيارة بما فيها القمر والشمس، ويحدث هذا كل (ستةٍ وثلاثين ألف عامٍ)، بينما قال اليونان: إن حدود حدوث السنة الكبرى هو (ثمانية عشر ألف عامٍ)، ومع أنه لا شك حول أن الفكرة عُرِضَت بشكلٍ أو بآخر في أغلب الديانات والفلسفات القديمة التي تعرضت لفكرة العود الأبدي للعالم، وعودة الحوادث الماضية التي كانت قد حدثت آنذاك، لتعود وتحدث من جديدٍ؛ لكن نيتشه قدَّم فكرةً مختلفةً كلياً بتفاصيلها وتعقيداتها، بل اعتبرها فكرته المركزية، معتبراً (نفسه زاردشت) معلم العود الأبدي، أنت معلم العود الأبدي يا زاردشت [...]، ونحن نعرف ما الذي تعلمه: إن الأشياء جميعاً في عودٍ أبديٍّ، ونحن معها، وإننا كنا لمراتٍ عديدةٍ هنا وكل الأشياء معنا!..[٥٢].

إنك تعلم بأن هناك سنةً عظمى للصيرورة، سنةً فضيعةَ العظمةِ، شيءٌ لا بد له، كما الساعة الرملية، أن يظل على الدوام ينقلب وينقلب مجدداً كيما يستطيع أن يمضي في سيره من جديدٍ

وينقضي، عوداً أبدياً يعود الإنسان الذي سئمته؛ الإنسان الحقير[٥٣]، وكان قد ناقشها بشكلٍ فلسفيٍّ عميقٍ، وبشَّر بها برؤيةٍ وطريقةٍ وأهدافٍ وشروحاتٍ مختلفةٍ كلياً عن سابق طرحها في تاريخ الأديان والفلسفات.

من هنا يظهر لنا أن العود الأبدي هو من بين أهم الأفكار التي قدمها نيتشه في أغلب مؤلفاته، وشكلت بتعبيرٍ أدقّ : أداةً، بل استراتيجيةً معرفيةً أو عقليةً، كان الغرض منها هو تحطيم الأصنام الذهنية السائدة آنذاك، وكانت ذاتها مِعْوَلاً هَدَم أسس الميتافيزيقيا، وهذا يُؤكِّد أنه لم يستعير الفكرة من أفكار الفلاسفة أو الديانات القديمة؛ قدر ما أنه طورها من فكرةٍ مطروحةٍ على رفوف المكتبات الفلسفية لقرونٍ طويلةٍ، مهملةٍ، باردةٍ، وأحالها إلى أداةٍ فذةٍ مخيفةٍ؛ لترميم الفراغات في فلسفته، ولهدم الأصنام والميتافيزيقيا وشرارة النار التي ستحرق العالم القديم، وقد كتب (دولوز) -خلافاً لكل دارسي نيتشه- حول هذه المشكلة يقول: "يجري السؤال أحياناً: كيف أمكن نيتشه أنْ يعتقد أنَّ فكرةً كهذه جديدةٌ وخارقةٌ وهي فكرةٌ تبدو مع ذلك مألوفةً لدى القدامى؟! لكن بالضبط كان نيتشه يعرف تماماً أنها غير موجودةٍ لدى القدامى، لا في اليونان ولا في الشرق إلا بطريقةٍ مجزأةٍ وغير أكيدةٍ [...]، على كلٍّ يمكننا مع نيتشه بالذات أن نُعِدَّ فكرة "العود الأبدي" اكتشافاً نيتشوياً، له مقدماتٌ منطقيةٌ من العصر القديم"[٥٤]، مع ملاحظة أن نيتشه لم يُنكِرْ هذا الأمر إطلاقاً، فقد كتب يقول: لقد عثرت على هذه الفكرة لدى مفكرين أكثر قِدماً، وفي كل مرةٍ كانت تحددها أفكارٌ مسبقةٌ أخرى (هي في الغالب أفكارٌ مسبقةٌ لاهوتيةٌ تدافع عن الخالق الروحي)، بشكلٍ عامٍّ لو كان بإمكان العالم أنْ يتجمدَ، أو يجفَّ، أو يفنى، أو يصيرَ عدماً، أو لو كان بإمكانه بلوغ حالة الميتافيزيقا، لو أمكن للصيرورة أنْ تقود إلى الكينونة أو إلى العدم، لو كان هذا الوضع قد تحقق، ولكنه لم يتحقق، ومن ثم هذا هو اليقين الوحيد الذي نملكه لنُصحِّح به كمّاً هائلاً من الفرضيات الكونية الممكنة في ذاتها.

الاتجاه الآخر من الباحثين، ذهب إلى إيجاد تحليلٍ نفسيٍّ خالصٍ لفكرة (العود الأبدي) عند نيتشه؛ رغبةً منهم بإعطائها تفسيراً ما خارج المنطق الفلسفي الذي انطلق منه نيتشه نفسه[٥٥]، معتبرين فكرة (العود الأبدي) تعبيراً لا واعياً عن رغبة النفس في السيطرة على الزمان، فحين يعود كل ما مضى عدداً لا متناهياً من المرات، يستوي عند النفس الماضي والمستقبل، ويصبح كل ماضٍ قُمْتُ به مستقبلاً سأقوم به فيما بعد، وهكذا تتحرر النفس من قيد الماضي بإحالته إلى مستقبلٍ، وتسيطر الإرادة الخالقة على الزمان في كل مظاهره، لا في مستقبله فحسب، وفي هذا الفهم لفكرة (العود الأبدي) يبدو نيتشه وكأنه يُفكِّر خارج العقل وخارج الواقع، مع أن الكثير من الدراسات الحديثة[٥٦] التي أظهرت صدق أغلب افتراضات نيتشه حول العود الأبدي، وحول مستقبل العالم بعده، وحول العدمية الأوربية، وغير ذلك.

لقد نظر الكثير من الباحثين لفلسفة نيتشه بتحفُّظٍ وكرهٍ شديدين من فرط تعقيدها وصعوبتها، "وبالتحديد مقولته عن "العود الأبدي"، مع أنه حاول بشكلٍ دائمٍ اختيار أبسط العبارات وأسهل الكلام، وكان قد حاول شرحها وشرح أفكاره بلغةٍ واضحةٍ للجميع، تكاد تكون واضحةً على

أبسط الناس، بل إنه حاول في أحايين كثيرةٍ أنْ يتنازل عن لغته الأصلية ليتحدث بمستوى الناس العاديين، فقد ذهب إلى عرض فكرته عن العود الأبدي قائلاً: "أريد أن أُعلِّمَ الناس الفكرة التي ستمنح الكثيرين منهم الحق في وضع حدٍّ لحياتهم، فكرة الانتقاء العظيمة، فكرة العودة الأبدية"، بهذه الطريقة حاول (نيتشه) وضع أهم الفرضيات الأساسية التي قد تكون داعمةً لفكرته وشارحةً لتطبيقها وتحقيقها أيضاً:

١. إنَّها فكرةٌ عمليةٌ وصعبةٌ، أثرها محتملٌ ما لم يتم اتخاذ إجراءاتٍ وقائيةٍ؛ أي ما لم يتم قلب كل القيم.
٢. وسيلةٌ دعمها: قلب كل القيم، ليست اللذة الناجمة عن اليقين بل عن اللايقين، ليس الـ "سبب" والـ "النتيجة" بل الخلق الدائم، ليست إرادة البقاء بل إرادة القوة، ليس ذلك التعبير الوضيع القائل: " كل شيءٍ ذاتيٌّ"، بل "إنه عملنا نحن كذلك، فلنكن فخورين به!".

دعم فكرة العودة الأبدية يقتضي الاستقلالية عن الأخلاق بمفهومها السائد في عصره أو بوصفها نوعاً من الرغبة بإذلال الناس عقلياً وقيمياً وأخلاقياً، وكذلك العثور على وسائلَ جديدةٍ ضد عمل الألم (بوصفه أداةً، باعثاً للفرح) المتعة التي يمنحها اللايقين، والمؤقت، عوض تلك القدرية المتطرفة، إلغاء فكرة الضرورة، إلغاء الـ" إرادة "، إلغاء الـ"معرفة في ذاتها"[٥٧].

حاول نيتشه أنْ "يُكرّس عشر سنواتٍ من حياته في دراسة العلوم الطبيعية، لا لشيءٍ إلَّا ليُثبِت فكرة العود الأبدي إثباتاً علمياً متيناً، غير أنَّ اعتلال صحته لم يُمكِّنه من تحقيق ذلك المشروع، مع ذلك لم تُثْنِه ظروفه الصحية عن تدعيمها ونقلها علمياً من مجرد فرضٍ ميتافيزيقيّ إلى نظريةٍ أو قانونٍ أزليّ طبيعيّ، وكانت أولى القواعد العلمية التي ارتكز عليها في صياغة نظريته هي أن: مدى القوة الكونية متناهٍ ومحددٌ؛ ومعنى ذلك: إن عدد مواقع القوة وتغيراتها وتركيباتها محدودٌ بدوره، وإنْ يكن هائلاً، ففكرة استمرار التحول إلى ما لا نهايةٍ تنطوي في ذاتها على تناقضٍ؛ إذ نفترض وجود قوةٍ تتزايد إلى ما لا نهايةٍ، ولكن من أين لها هذا التزايد؟ ومن أين يمكن لها أن تتغذى بهذا القدر الهائل؟ بالتالي إنَّ تصور العالم على أنه قوةٌ محدودةٌ هو الذي يُميّز الروح العلمية من الروح الدينية في رأي نيتشه، والشرط العلمي الأول لتحقق العود الأبدي هو أنْ تكون القوة الكونية محدودةً ومتناهيةً، أما الشرط الثاني فهو أنْ يكون الزمان لا متناهياً؛ بمعنى أنْ تظل القوة تمارس فعلها بلا انقطاعٍ، ومن ثم لو توفرت لا نهائية الزمن فلا بد أنْ تستنفذ الإمكانيات التي تُتاح لهذه القوة المحدودة، وبهذا تأتي حالة التماثل الكلي، وكأن هذه الحالة قد تكررت من قبل، وهذا ما أطلق عليه تماثل العود الأبدي عندما يُتِمُّ دورةً من دوراته.

وقد حاول التقدم بنوعٍ ما لمناقشةٍ علميةٍ صارمةٍ في آخر مؤلفاته لضبط فكرته هذه علمياً وموضوعياً، متأملاً مع نفسه لو كان للعالم هدفٌ لكان هذا الهدف قد تحقق، لو كان هناك وضعٌ أخيرٌ غير متوقعٍ بالنسبة له لكان هذا الوضع قد تحقق هو الآخر، لو كان قادراً على الاستماتة والمثابرة، قادراً على أن "يكون"، لو أنه -أثناء صيرورته- كان يملك -ولو للحظةٍ واحدةٍ فقط- هذه

القدرة على أن "يكون" لقُضِيَ أمرُ الصيرورة برمتها منذ أمدٍ بعيدٍ، ومن ثم أمرُ كل فكرةٍ، كل "عقلٍ"؛ إذ كون "عقلٍ" صيرورةً يُبرهِن على أن العالم ليس له هدفٌ، ولا وَضْعٌ أخيرٌ، وبالتالي على كونه عاجزاً عن أن "يكون"، وانطلاقاً من هذا التفسير، يطرح هذا الفيلسوف أسطورة الانسان الأعلى من حيث أنها هدف العالم والصيرورة، فليست البشرية هي الهدف بل الإنسان الأعلى، فالإنسان هو شيءٌ يجب أن يُعلى عليه، وهو معبرٌ وليس هدفاً ما لم يتضمن في داخله احتمال الصيرورة إلى إنسانٍ أعلى!.. ولكن لا يجب أن نأخذ ذلك بافتراض أنه عمليةٌ حتميةٌ، هذا خطأٌ كبيرٌ في التفسير النيتشوي، الإنسان الأعلى هو هدفٌ للإرادة، وهذا يُعيدنا إلى تصور نيتشه الأنثروبولوجي للإنسان أنه حبلٌ منصوبٌ بين الحيوان والإنسان الأعلى، حبلٌ مشدودٌ فوق هاويةٍ! وها هنا ينسف نيتشه مرةً أخرى فكرة وجود هدفٍ للعالم، ولكن العقلية الفلسفية التقليدية هي التي تقضي وتفترض وجود هدفٍ لكل ما يحدث، وفي وجود إلهٍ خلق العالم ويُسيّره كيف يشاء، هذه العقلية تُمارس تأثيراً هائلاً، بحيث أن المفكر يجد عناءً كبيراً في عدم تصور غياب الهدف في هذا العالم.

إنَّ فكرةَ كون العالم يتعمد تفادي بلوغ[٥٨] الهدف، وكونه يعرف كيف يتفادى بتكلُّفٍ أنْ يقع في حركةٍ دائريةٍ، لا بد أنها فكرة أولئك الذين يريدون أن يُلزموا العالم بالقدرة على التجديد الأبدي؛ أي إلزام قوةٍ محدودةٍ، ومعينةٍ، ومساويةٍ لنفسها على الدوام، مثلما هو حال "العالم" بالقدرة الرائعة على تجديد أشكاله وأوضاعه إلى ما لا نهايةٍ؛ لهذا السبب بالضبط ذهب نيتشه إلى اعتماد رغبة سبينوزا في تفادي هذا الخطأ الكبير في مقابلةٍ حساسةٍ جداً، تلك هي التي تُجسِّد في كلماته "الإله أو الطبيعة" (بل كان الأمر بالنسبة له هو "الطبيعة أو الإله")، ولكن ما هي العبارة التي تُعبِّر بشكلٍ أفضل على التغيُّر النهائي؟ عن الهيمنة المتحققة الآن للعقل العلمي؟ على العقل الديني الذي يعتاش على تخيل عوالم الميتافيزيقيا؟ ألا يجب القول: إن العالم -بوصفه قوةً- لا يمكن تخيله لا متناهياً؟ لأن تصوره على ذلك النحو مستحيلٌ؛ إننا نحرم أنفسنا فكرة قوةٍ لا متناهيةٍ؛ لأنها تُناسب فكرة القوة؛ إذن فالقدرة على التجدد إلى ما لا نهايةٍ منعدمةٌ في العالم، وهو بالضبط ما قاله العالم ري (REY): "إنَّ العالم آلةٌ عمياءُ، من شأنها أنْ تمر بنفس الحالات مراتٍ لا متناهيةً"[٥٩]، مع ذلك فإن نيتشه سبق الجميع بفكرته هذه عن دائرية الزمن؛ كل ما هو مستقيمٌ كاذبٌ، كل حقيقةٍ مِعوجَّةٌ، والزمن نفسه دائرةٌ مغلقةٌ.

انظر إلى هذه اللحظة! يمضي درب طويل أبدي إلى الوراء، هناك أبديةٌ تمتد وراءنا، ألا ينبغي على كل ما يستطيع المشي أن يكون قد سلك هذا الدرب؟ ألا ينبغي على كل ما يمكن أن يحدث من الأشياء أن يكون قد حدث، قد صُنِعَ، وقد مضى ذات مرةٍ؟! تلك الرُّتَيْلاء البطيئة القابعة تحت ضوء القمر، وهذا القمر أيضاً، وأنا وأنت الجالسين إلى السقيفة متهامسين، نتحدث عن أشياءَ أبديةٍ كثيرةٍ، ألا ينبغي أن نكون جميعنا قد وُجِدْنا هنا سابقاً؟ وأننا نعود ونمضي على ذلك الدرب الآخر؛ قُدُماً على هذا الدرب الطويل المفزع، علينا أن نظل نعود بصفةٍ أبديةٍ "[٦٠].

يعلن نيتشه بوضوحٍ رهيبٍ أنَّ ما يريده ويطلبه من الناس: تمجيد الأرض، وإضفاء المعنى الإنساني لا الإلهي أو الميتافيزيقي على هذا العالم، تمجيد الحياة وإعلاء شأنها، والتعلق بالطبيعة والحياة الأرضية: "ما الذي فعلناه حين انتزعنا السلسلة التي كانت تشد هذه الأرض إلى الشمس؟ إلى أين تذهب الآن؟ إلى أين نمضي نحن؟ أبعيداً عن كل الشموس؟ ألا نسقط نحن بلا انقطاعٍ إلى الإمام، إلى الوراء، جانبياً، إلى كل الجهات؟ هل ثمة أعلى وأسفل؟ ألسنا نمضي تائهين كما لو في عدمٍ لا نهايةَ له؟ ألا نحس بنفس الفراغ في وجهنا؟ ألا تأتي المزيد من الليالي باستمرارٍ؟ ألا نزال نسمع شيئاً من الضجيج الذي يُحدِثه حفَّارو القبور الذين يدفنون الميتافيزيقيا؟"[٦١]، وهنا يصح بالتَّمام ما قاله نيتشه عن هذا الأمر، إنها رغبة سبينوزا مرة أخرى إمَّا أنْ تختاروا بين "الطبيعة أو الإله". إنَّ نظرية ثبات الطاقة تقتضي العودة الأبدية، الـ "قوة" من جهةٍ، والـ "ثبات" والـ "استقرار" من جهةٍ أخرى، شيئان يُلغي أحدهما الآخر، مقياس القوة (كعددٍ) ثابتٍ، وجوهرها سائلٌ، لاشي يحدث "خارج الزمن"، في لحظةٍ معينةٍ من لحظات القوة المشروطية المطلقة لتوزيعٍ جديدٍ لكل القوة أمرٌ مسلَّمٌ به، لا تستطيع القوة التوقف، فالـ "تغيُّر" من سمات جوهرها، وكذلك الطبع الزمني: وهو شيءٌ يتم به مرةً أخرى حصر ضرورة التغيُّر بشكلٍ مجردٍ، لو أنَّ حركة العالم كانت تسير نحو هدفٍ ما لم يبلغ هذا الهدف، والأمر الأساس الوحيد بالضبط كونه لا يسير نحو وضعٍ أخيرٍ، وكل فلسفةٍ أو فرضيةٍ علميةٍ؛ كالإوالية مثلاً تتضمن وضعاً أخيراً يدحضها هذا الأمر الأساسي [...]، إنني أبحث عن تصورٍ للعالم يأخذ هذا الأمر في الحسبان، يجب أنْ نُفسِّرَ الصيرورة دون أن نلجأ إلى مثل النوايا القصدية هذه، يجب أن تبدو الصيرورة مبررةً في كل لحظةٍ من لحظاتها، أو أنْ تبدو غير قابلةٍ للتقييم، وهو ما يعني نفس الشيء، لا يجب بتاتاً أنْ نُبرِّر الحاضر بالمستقبل، أو الماضي بالحاضر، لا توجد الـ "الحتمية" على شكل قوةٍ عالميةٍ تتدخل وتهيمن، أو على صورة محركٍ أصليٍّ، كما أنها لا توجد كشرطٍ لشيءٍ ثمينٍ؛ ولهذا يتحتم علينا أنْ ننفي وجود وعيٍ عالميٍّ للصيرورة، وجود "إلهٍ" حتى لا ننظر إلى كل ما يحدث بمنظار كائنٍ رحيمٍ وعارفٍ، ولكنه لا يُعبِّر عن إرادته، لا جدوى من إلهٍ إن لم تكن له قيمةٌ، بهذا جمعاً بين الكدر واللامعقولية سينقص من القيمة العامة للـ "صيرورة"، لحسن الحظ إنه لا وجود لهاته القوة التي تقوم بالجمع (الإله الذي يتألم ويهيمن بنظرته، "الوعي الشامل"، "العقل الكوني"، قد يكون أكبر حجةً ضد الإله)؛ بدقةٍ أكثر: لا يُسمَح بالتسليم بشيءٍ كائنٍ؛ لأنَّ الصيرورة تفقد قيمتها وتبدو كشيءٍ زائد عن الحاجة ولا معنى له[٦٢].

١- ليس للصيرورة وضعٌ أخيرٌ، ولا تُؤدي إلى "كائنٍ متعالٍ".

٢- ليست الصيرورة شرطاً ظاهراً، وقد يكون عالم الكائن المتعالي مجرد ظاهرةٍ.

٣- تظل الصيرورة في كل لحظةٍ مساويةً لنفسها في كليتها، لا يتغير مجموع قيمتها.

بعبارةٍ أخرى: ليست لها قيمةٌ على الإطلاق؛ لأنه ينقصنا ما نقيسها به، وما قد يُضفي معنىً على كلمة "قيمة"، لا يمكن تقدير القيمة العامة للعالم، وبهذا يكون التشاؤم الفلسفي -بحسب نيتشه- واحداً من تلك الأشياء المضحكة.

ها هنا يُقدِّم نيتشه تصوره عن العالم كما قدَّمه أرسطو وقدَّمه بطليموس في آخر القرن الميلادي الأول، واعتبره تصحيحاً هائلاً للتصور الأرسطي، عندما حاول حل التناقض الموجود في التفسير الأرسطي قائلاً: الأرض هي مركز الكون، وتدور الكواكب حولها، ولكن ليس في مسارٍ دائريّ كما تصور أرسطو، بل في مسارٍ آخر يُدعى (epicycle)، وهذا يعني أن كل كوكبٍ يدور حول مركزٍ معينٍ ما، وهذه المراكز هي التي تدور حول الأرض، فالأرض مركز المراكز، وبذلك تمكَّن هذا التصور من التوضيح أو الإجابة عن السؤال: لماذا تبدو الكواكب كأنها تتحرك في اتجاهٍ معينٍ ثم تنقلب لتتحرك في الاتجاه الآخر؟ حتى تصور بطليموس هذا، مع أنه بدا فعَّالاً للوهلة الأولى، لكنه كما نعرف سرعان ما تعرَّض عقب مجيء كوبرنيكوس لنقدٍ وإعادة تقييمٍ قاسيةٍ، مع ذلك هذا لا يُقلِّل من القيمة العلمية للتصورات الكونية التي تقدَّم بها أرسطو أو بطليموس؛ فقد قدَّما كلاهما تصوراتٍ مهمةً جداً دعماها بأدلةٍ تُثبِت وجهة نظرهما العلمية منها، ذات الأمر ينطبق على نيتشه، لقد قدَّم طرحاً علمياً كبيراً، وقدمه بعقليةٍ علميةٍ هائلةٍ وكبيرةٍ، لكن الزمن لم يسعفه قليلاً من الوقت ليُثبِت صدقية نظريته أو مقولته (العود الأبدي)، يجب أن نتعامل مع رؤية العود الأبدي عند نيتشه بوصفها فرضيةً تجريبيةً، لا بوصفها فكرةً مكتملةً أو اختباراً كلياً لحركة العالم واتجاهاته.

إن التصور الجديد للعالم الذي يقدمه نيتشه أنَّ العالم الموجود ليس شيئاً في طور التشكل والصيرورة، شيئاً عابراً أو بعبارةٍ أدقٍ: إنه يصير، يمر، ولكنه لم يشرع أبداً في الصيرورة، ولم يكفَّ عن المرور، إنه يحافظ على نفسه في هذين الشكلين [...]، إنه يعيش في ذاته؛ فضلاته هي غذاؤه.

ويُؤكِّد نيتشه أنه لا يجب أنْ تشغلنا فرضية كون هذا العالم مخلوقاً ولو لحظةً، بل ما يجب أنْ يشغلنا هو أنَّ هذا العالم يُعيد إنتاج نفسه بشكلٍ رهيبٍ، بشكلٍ يتطلب منا تفسيراً عميقاً.

اعتقد (نيتشه) أنه إذا كان بإمكاننا تخيُّل العالم ككميةٍ محددةٍ من القوة، وكعددٍ محددٍ من مراكز القوة -كل تصورٍ آخر يبقى غير محددٍ وبالتالي غير صالحٍ للاستعمال- فسينتج عن ذلك أنه على العالم اجتياز عددٍ من التوفيقات (الارتباطات) التي يمكن تقديرها، وذلك في إطار لعبة النرد الكبرى التي يمارسها وجوده في غضون زمنٍ معينٍ سيتم تحقيق كل وحدةٍ من توفيقاته مرةً واحدةً، بل سيتم تحققها ما لا يحصى من المرات، وبما أنه بين تحقُّق توفيقةٍ ما وبين تحقق كل التوفيقات الأخرى الممكنة، وكل واحدةٍ منها تتحكم في توالي توفيقات السلسلة الواحدة، فإننا بذلك نبرهن على توالي توفيقات السلسلة الواحدة فضلاً عن أننا نبرهن على توالي السلسلات الواحدة، وبالتالي نبرهن على توالي السلسلات المتطابقة في حركةٍ دائريةٍ، نبرهن على كون العالم حركةً دائريةً تكررت ما لا يُحصى من المرات، وهو مستمرٌ في ممارسة لعبته إلى ما لا نهاية، ليس هذا التصور تصوراً آلياً صرفاً؛ لأنه لو

كان كذلك لما استلزم تكرار الحالات المتطابقة إلى ما نهاية، بل وضعاً نهائياً، وبما أنَّ العالم لم يبلغ هذا الوضع النهائي، فيجب أن تنظر إلى الأولية بوصفها ناقصةً وفرضيةً مؤقتةً[٦٣].

الهوامش والإحالات

[١] - بلو، دنيال: تشكُّل فريدريك نيتشه: السعي للهوية من ١٨٤٤-١٨٦٩، ترجمة: محمد الفشتكي (دار الرافدين-بيروت)، ٢٠١٨، ص٢٦٧.

[٢] - نيتشه، فريدريك: هذا هو الإنسان، ترجمة: علي مصباح، (دار الجمل-بيروت)، ٢٠٠٦، ط/٢، ص٧.

[٣] - قال ميشال هار(Michel Haar) في كتابه (فريدريك نيتشه): إن لا أحد من عظماء الفلاسفة في الماضي خص فيلسوفاً آخر بقراءةٍ بمثل هذا المدى والعمق والتدقيق الذي قرأ به هايدغر (نيتشه)، الملفت للانتباه هو حجم النصوص والدروس التي كتبها هايدغر عن نيتشه: لقد قدم عنه ولمدة عشرين سنةً تقريباً، من سنة (١٩٣٦-١٩٥٥)، كَمّاً هائلاً من المقالات والمحاضرات والحواشي والشذرات، لم يتم نشر بعضها إلا بعد وفاته، حتى نُشِرَت في ثمانينيات القرن المنصرم؛ أي بُعيد وفاته، بأربع مجلدات ضخمة، ويتساءل الفيلسوف ميشيل هار: لماذا كل هذه المواجهة الضارية؟ لماذا هذا التفكيك الهائل والطموح؟ بالتأكيد إن السبب الأساسي: اعتبار هيدغر أن نيتشه مثل الذّرْوة التي فيها تجد الميتافيزيقا الغربية اكتمالها، كذلك إنه "الفيلسوف الأخير" (بحسب تعبير نيتشه نفسه). ينظر في: ميشيل هار، المجلة الأدبية الفرنسية، ع.٢٩٨، أبريل ١٩٩٢، ص٩٢، كذلك ينظر: بينوا، آلان دي: هايدغر ناقداً نيتشه، إرادة القوة وميتافيزيقيا الذاتية (نُشِر على موقع المؤلف نفسه وترجمه عماد أيوب).

[٤] - بينوا، آلان دي: هيدغر ناقد نيتشه "إرادة القوة وميتافيزيقيا الذاتية"، دراسة نشرت في (مجلة استغراب-بيروت)، ٢٠١٦، ص٢٢٨-٢٢٩.

[٥] - لقد بدأ ياسبرز وربما انتهى متأثراً بأفكار نيتشه، وفي كتابه الكبير (مدخل إلى فلسفة نيتشه) الذي صدر العام (١٩٣٦) بالألمانية، حاول ياسبرز أن يبعدَ شبح نيتشه عنه، معلناً أنه أبعد ما يكون عن نيتشه وأفكاره، لكن ما يُظهره أسلوبه في الكتاب يبدو غير ذلك؛ فلقد كان "مفتوناً" بعبقرية نيتشه وقدرته على صياغة أفكاره بلغةٍ أدبيةٍ "نادرة الوجود في الفلسفة"، لم يرفض وينتقد الفكر النيتشوي إلا ما كتبه نيتشه في" زرادشت" معتبراً أن هنالك إفراطٌ في عداء نيتشه للمسيحية، وقد بدأ ياسبرز مقدمة كتابه هذا تحت عنوان (كيف نفهم عمل نيتشه؟) مستعرضاً فيها الأنماط المتعددة لتفسير هذا العمل، مركزاً بخاصةٍ على مفهوم (الحقيقة) الذي يعرف ياسبرز أنه كان أساسياً لدى نيتشه، ثم يستعرض حياة نيتشه راسماً صورةً متكاملةً لتلك الحياة، بدءاً من الطفولة وصولاً إلى زمن العزلة ثم المرض والموت، لينتقل إلى شرح مقولات نيتشه: العود الأبدي، الإنسان الأعلى، الحقيقة، التاريخ، وصولاً إلى تفسيره للعالم، وقد اعتبر الفلاسفة أن ياسبرز نيتشوياً، رغم أنه أنكر هو ذاته هذا، أكد في نهاية كتابه هذا أن نيتشه ضحيةً، وسيظل حتى النهاية فكراً مفتوحاً، غير قابلٍ لأن يستحوذ عليه أحدٌ.

[٦] - لقد كتب نيتشه سيرته الذاتية ونظام أفكاره في مقالاته الأولى ابتداءً من العام ١٨٥٨: بدءاً بسيرته الذاتية "حياتي"، ثم "مسار حياتي" ١٨٦١، ثم "سيرة حياتي" ١٨٦٣، ثم "ذكريات إقامتي في لايبزغ" ١٨٦٩، ثم "المصير والتاريخ"، "حرية الإرادة والمصير"، وأخيراً "المراقبة الذاتية "، ونظر كلٌّ من (شميدت وكيير) Schmidt Kjaer (-1991 1994) إلى هذا التراث السيري لحياة نيتشه على أنه كان ذا وظيفةٍ تحرريةٍ في مواجهته مع نفسه والمجتمع والعالم.

[٧] - نيتشه، فريدريك: الفجر، ترجمة: محمد الناجي، (إفريقيا الشرق-بيروت) ٢٠١٣، ص٢١.

[٨] - هذا النص يعود للعام ١٨٨٩، وهو العام الذي اعتُبِر به نيتشه قد أصبح مجنوناً، ينظر في: نيتشه، فريدريك: هذا هو الإنسان، ص٣٤.

[٩] - نيتشه، فريدريك: إرادة القوة: محاولةٌ لقلب كل القيم، ترجمة: محمد الناجي (إفريقيا الشرق-بيروت) ٢٠١١، ص٣٧٤.

[١٠] - بلو، دنيال: تشكُّل فريدريك نيتشه: السعي للهوية من ١٨٤٤-١٨٦٩، مصدر سابق، ص١٣.

[١١] - نيتشه، فريدريك: هذا هو الإنسان، مصدر سابق، ص٣٤.

[١٢] -د. بروير (1925– 1842) هو الطبيب العقلي الذي استنجدت به لو سالومي صديقة نيتشه لمعالجة حالة نيتشه العقلية أو لفهمها على الأقل، وهو أحد أهم أساتذة فرويد، وفي حوارٍ مهمٍّ وهائلٍ يدور بين الدكتور بروير والفيلسوف نيتشه حول العودة الأبدية:

نيتشه: يفقدُ الموت هيبته حين يُكمِل المرء حياته، فهل أكملت حياتك؟

د.بروير: حققتُ جزءاً كبيراً منها.

نيتشه: ولكن هل عشتَ حياتكَ أم كُنت تُعاش بواسطتها؟ أنت تقف خارج حياتك حزيناً، ناشداً حياةً أُخرى لم تَعشها، كل ما في حياتك سيعود إليك نفس النجاح وبنفس التوالي مرةً إثر مرةٍ كساعةٍ من الرمال، تخيل اللانهائية، وضع في حسبانك احتمالياتٍ، إنَّ كل فعلٍ تختاره يا جوزيف تختاره إلى الأبد، وبذلك فالحياة التي لم تُعاش بعد ستبقى في داخلك غير معاشةٍ عبر الأبدية. من فيلم عن سيرة حياة الفيلسوف فريدريك نيتشه: When Nietzsche Wept.

[١٣]- كريم، فوزي: نيتشه والموسيقى، مقالٌ نُشِرَ في مجلة الكوفة، العدد الأول، تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١٢، ص١٣٧.

[١٤] - غرانييه، جان: نيتشه، ترجمة: د.علي بو ملحم (المؤسسة الجامعية للدراسات-بيروت)٢٠٠٨، ص٢٦.

[١٥] - دولوز، جيل: نيتشه، تعريب أسامة الحاج، (المؤسسة العربية للنشر-بيروت) ١٩٩٨، ص١٦.

[١٦] - نيتشه، فريدريك: هذا هو الإنسان، ص١٨

[١٧] - نفسه، ص٢٤-٢٥.

[١٨] - نيتشه، فريدريك: إنسانٌ مفرطٌ في إنسانيته، ترجمة: محمد الناجي (دار إفريقيا الشرق-بيروت) ٢٠٠٢، ص١٢.

[١٩] - نيتشه، فريدريك: إرادة القوة: محاولةٌ لقلب كل القيم، مصدر سابق، ص٧-٨.

[٢٠]- نيتشه، فريدريك : هذا هو الإنسان، ص٢-٥.

[٢١] -نفسه، ص١٢.

[٢٢]- دينوزيس أو باكوس أو باخوس: في الميثيولوجيا الإغريقية هو إله الخمر عند الإغريق القدماء، وملهم طقوس الابتهاج والنشوة، ومن أشهر رموز الميثيولوجيا الإغريقية، وتم إلحاقه بالأوليمبيين الاثني عشر، أصوله غير محددةٍ لليونانيين القدماء، إلا أنه يُعتقَد أنه من أصولٍ "غير إغريقيةٍ" كما هو حال الآلهة آنذاك.

[٢٣] - نيتشه، فريدريك: إرادة القوة، مصدر سابق، ص٣٦٢.

[٢٤] - نيتشه، فريدريك: الفجر، مصدر سابق ٢٠١٣، ص١٢٧.

[٢٥] - فوكو، ميشيل: فيلسوف القاعة الثامنة، هاشم صالح، من مجلة الكرمل، عدد ١٣ في ١٩٨٤، ص١٦.

[٢٦] - نيتشه، فريدريك: إرادة القوة: محاولةٌ لقلب كل القيم، مصدر سابق، ص١٢٥.

[٢٧] -. نيتشه، فريدريك: هذا هو الإنسان، مصدر سابق، ص٩.

[٢٨] - الحقبة الهيلينية، وهي فترةٌ متأخرةٌ من الحضارة الإغريقية التي ازدهرت في الفترة المسماة العصر الكلاسيكي، وتمتد منذ أوائل القرن الرابع قبل الميلاد وحتى موت الإسكندر المقدوني في ٣٢٣ ق.م، وفي هذه الفترة

اعتُبِرَت الثقافة الإغريقية في أوج عبقريتها وعظمتها الفكرية والعلمية والفلسفية، وهي بخلاف الهيلينستية التي تُعتبر ثقافةً مركبةً من عناصر يونانيةٍ وشرقيةٍ، حمل فيها الإغريقيون إلى الشرق الفلسفة، ولقَّح فيها الشرقيون حضارة اليونان بروحانية الشرق وعادته وعلومه.

[٢٩] - نيتشه، فريدريك: إرادة القوة، نفسه، ص٢٣٠.

[٣٠] - غرانييه، جان: نيتشه، مصدر سابق، ص٦٤.

[٣١] - نيتشه، فريدريك: إرادة القوة، مصدر سابق، ص ١١.

[٣٢] - نيتشه، فريدريك: هذا هو الإنسان، مصدر سابق، ص٤١.

[٣٣] - زكريا، فؤاد: نيتشه، مصدر سابق، ص٧٦.

[٣٤] - نيتشه، فريدرك: أصل الأخلاق، الفصل الثالث، ص٢٨، ينظر أيضاً في: دولوز: نيتشه، ص٩٤.

[٣٥] - نيتشه، فريدريك: إرادة القوة، مصدر سابق، ص٣٠٤.

[٣٦] - نفسه، ص٣٠٥.

[٣٧] - نيتشه، فردريك: هذا هو الإنسان، ترجمة: علي مصباح (دار الجمل-كولونيا-بغداد) ٢٠٠٦، ص٩.

[٣٨] - نيتشه، فريدريك: إنسانٌ مفرطٌ في إنسانيته، ترجمة: محمد الناجي (دار إفريقيا الشرق-بيروت) ٢٠٠٢، ص١٨.

[٣٩] -. ينظر في زكريا، فؤاد: نيتشه، مصدر سابق، ص٩.

[٤٠] - نيتشه، فريدريك: إنسانٌ مفرطٌ في إنسانيته، مصدر سابق، ص١٧.

[٤١] - نيتشه، فريدريك: إرادة القوة، مصدر سابق، ص٢٠٤.

[٤٢] - كوبلستون، فريدريك: تاريخ الفلسفة من فشته إلى نيتشه (المجلد السابع)، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام وآخرون، (المركز القومي للترجمة-القاهرة)، ص٥٠٨.

[٤٣] - نيتشه، فريدريك: إرادة القوة، مصدر سابق، ص٢٩٩.

[٤٤] - نيتشه، فريدرك: العلم الجذل، ترجمة: د. سعاد حرب، (دار المنتخب العربي-بيروت)، ص١٩١.

[٤٥] - صفاء عبد السلام: محاولةٌ جديدةٌ لقراءة نيتشه، (دار المعرفة الجامعية-القاهرة)، ص٣٨١.

[٤٦] - نيتشه: العلم الجذل، ترجمة: د. سعاد حرب، (دار المنتخب العربي-بيروت)، ص١٩١.

[٤٧] - نيتشه، فريدريك: هكذا تكلم زاردشت، مصدر سابق، ص٤٤.

[٤٨] - العود الأبدي: هي فكرةٌ كوزمولوجيةٌ، مفادها أن كل ما يحدث هو جزءٌ من دورةٍ مكررةٍ أو سلسلةٍ من الحوادث لا نهاية لها، ينظر (دليل إكسفورد)، أما لالاند فيعرفها: كل حقبةٍ من عدة ألوفٍ من السنين (السنة العظمى) تعود مجدداً عوداً أزلياً مماثلاً بدقةٍ لما كانت عليه، وهي تقوم على الاعتقاد بأن تاريخ العالم هو جريانٌ دائمٌ لمراحل دورته، تتكرر كلٌّ منها بدقةٍ مطلقةٍ. وتجدر الإشارة إلى أن دليل إكسفور ومعجم لالاند كلاهما اعتمدا في تعريف (العود الأبدي) بالاستناد على نيتشه نفسه، وهذا ما لم يلاحظه الباحثون، مما جعلهم يلجؤون إلى تعريف هذه الفكرة بالاعتماد عليهم.

[٤٩] - نيتشه: العلم الجذل، مصدر سابق، ص١٩١.

[٥٠] - نيتشه، فريدريك: هكذا تكلم زاردشت، مصدر سابق، ص٤١٦.

[٥١] - صفاء عبد السلام علي جعفر: محاولةٌ جديدةٌ لقراءة فريدريك نيتشه، مصدر سابق، ص٣٨٦.

[٥٢] - نيتشه، فريدريك: هكذا تكلم زاردشت، المصدر السابق نفسه، ص٤١٥.

[٥٣]- نفسه، ص٤١٣-٤١٥.

[٥٤] - دولوز، جيل: نيتشه، ترجمة: أسامة الحاج، (المؤسسة الجامعية للدراسات-بيروت) ١٩٩٨، ص٤١.

[٥٥] - زكريا، فؤاد: نيتشه (دار المعارف-القاهرة) ١٩٥٦، ص٣٩

[٥٦] - يبدو أن فكرة العود الأبدي كانت قد مهدت الطريق لنظرية الانحسار العظيم عند ستيف هوكنغ التي ظهرت في منتصف القرن العشرين؛ حيث تقول هذه النظرية (العلمية): سينحسر الكون على نفسه، وسينبثق من جديدٍ، بنفس الترتيب وبنفس الشكل والتفاصيل مراتٍ لا متناهية!..

[٥٧] - نيتشه، فريدريك: إرادة القوة، مصدر سابق، ص ٢٩٤.

[٥٨] - نفسه، ص٣٠٠.

[٥٩] - زكريا، فؤاد: نيتشه، مصدر سابق، ص١٤٠.

[٦٠] - نيتشه، فريدريك: هكذا تكلم زاردشت، مصدر سابق، ص٣٠٢.

[٦١] - نيتشه: العرفان المبهج، ص١٢٥، ينظر أيضاً جيل دولوز: نيتشه، ص١٠٤.

[٦٢]- نيتشه، فريدريك: إرادة القوة، مصدر سابق، ص٣٠٢.

[٦٣]- نفسه، ص٣٠٢.